

المَرَاشِد السديدة للقراءة المفيدة

تأليف

أ.د. أحمد بن علي القرني

١٤٤١ هـ



كِتـابُ «الـمَراشِدِ» يـا مَـنْ وَعَـىٰ　　يُبــــيِّنُ للقــــارِئِ الـمَـــــهْيَعَا

فَجَــــرِّبْ قِراءتَـــهُ تَسْـــتَفِدْ　　ولا بَـــأسَ عِنـــديَ أنْ يُطبَعَـــا

النشرةُ الأولى

شعبان ١٤٤١ هـ

الإبداع العلمي للنشر والتوزيع

للتواصلِ معَ المؤلِّف

علىٰ البريدِ الشَّبَكي

DAL1388@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



نحمدُ اللهَ حقَّ حمدِه، ونُصَلِّي ونُسلِّمُ علىٰ مَن لّا نبيَّ مِن بعدِه.

وبعدُ؛

فإنّ القراءةَ هي الحياة! ولا حياةَ بلا قراءة!

❀ **فهي الطريقُ الأمثلُ**: لتثقيفِ الجَنَان، وتَقويةِ الفَهْم، وتَوسيعِ المدارك، وزِيادةِ العقل، وشَحْذِ الخاطِر(١)، وإثراءِ الفِكْر، وحُصولِ الرَّاحة، وذهابِ القَلَق، وتهدئةِ الأعصاب(٢)، وتَطويرِ الذَّات، وسَعَةِ النَّظَر، وتَحفيزِ الذِّهْن(٣)، وحِفظِ الوقت، وتَمامِ الأُنْس، وعُمْقِ التحليل، ودِقّةِ الاستنباطِ،

---

(١) **في دراسةٍ حديثةٍ** نُشرتْ في عام (١٤٤٠ هـ) (٢٠١٨ م) أكّد باحثون من جامعة (ييل) في الولايات المتحدة الأمريكية - بعد حصولهم علىٰ نتائج تجربةٍ استمرت (١٢) سنة - أنّ قراءةَ الكتب إضافةً إلىٰ أنها تقلِّلُ من احتمال المعاناة من اضطرابات أمراض الأوعية الدموية التي تهدِّدُ الحياة، فإنّها تحافظ علىٰ الدماغ في حالة العمل.
وقد تأكَّدَ أنّ كبارَ السنِّ الذين يقرأونَ يحافظونَ علىٰ قدراتِهم الفكرية فترةً أطولَ، مقارنةً بأقرانهم الذين يُهمِلون القراءةَ.

(٢) **أكّدت الدراسةُ السابقةُ** أنّ قراءةَ الكتب وسيلةٌ فعّالةٌ في مقاومة الإجهاد والقلق.
ووِفقًا للمُعطَيات الجديدة، فإنه يُمكن للكتبِ أن تُخفِّضَ القلقَ بنسبة ٦٨٪ كوسيلةٍ مهدِّئةٍ للجهاز العصبيِّ، وأنّ مفعولَها أفضلُ من التجوال في الهواء الطلْق.
كما أنّ قراءةَ الكتب تَحمي من عددٍ من الأمراض التي تُصيبُ الجِهازَ العصبيَّ المركزيَّ، حيثُ إنّ الإجهادَ هو السببُ في ٤٠٪ من حالات السكتة القلْبية والجلْطة الدماغية.

(٣) **تُعدُّ القراءةُ** من أكثر الأنشطة التي تحفِّزُ الدماغَ للقيام بمهامِّه، كما أنها تُطوِّرُ القدراتِ الدماغيةَ التواصليةَ والتحليليةَ، خصوصًا لدىٰ الأطفال واليافعين، كما تقوّي عملَ الوَصْلاتِ العصبيةِ الموجودةِ في الدماغ.

وقُوّةِ التخيُّل، وجَلْبِ السرور[١]، واحتيازِ الفوائِد، واقتناصِ الشوارِد، وكمالِ الـمُتعة، وتَرسيخِ القِيَم، وتَعجُّلِ النعيم[٢]، وتَنميةِ الذَّوْق، ودَوامِ البَهجة، وقُوّةِ التركيز[٣]، وتنامي اللذّة، وتَلاشِي الضَّجَر[٤]، واكتسابِ الخِبْرات،

(١) **قال ابنُ القيّم:** «حدثني شيخُنا (ابن تيمية) قال: ابتدَأني مرضٌ، فقال لي الطبيبُ: إنّ مطالعتَكَ وكلامَكَ في العِلم يزيدُ المرضَ، فقلتُ له: لا أصبرُ علىٰ ذلك، وأنا أحاكِمُكَ إلىٰ عِلمك، أليستْ النفسُ إذا فَرِحَتْ وسُرَّتْ قَوِيتْ الطبيعةُ فدفعتْ المرضَ؟ فقال: بلىٰ، فقلتُ له: فإنّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوىٰ به الطبيعةُ فأجدُ راحةً! فقال: هذا خارجٌ عن عِلاجِنا، أو كما قال». روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص/ ٧٠).

(٢) يُنقلُ عن الشيخ العلّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، **قولُه: حبُّ القراءة من النعيم المعجَّل للمؤمن في الدنيا.**

(٣) **القراءةُ من الأنشطة الذِّهنية الفاعلة** في زيادة تركيز العقل؛ وذلك لما تُنتجُه من الجُهدِ المبذولِ في تتبّع سياق النصّ، أو الحفاظِ علىٰ سَيْر الأحداث في القَصَص، أو الاحتفاظِ بأسماء شخصياتِ الوقائع التاريخية أو الأعمال الروائية، أو التأمّلِ في استشهاداتِ الكاتب وأفكارِه....

(٤) **القراءةُ من أعظم الأنشطة** التي تؤدّي إلىٰ تقليل معدَّلات الاكتئاب والتوتُّر العصبي؛ لأنها تُكسِبُ القارئَ أنماطًا فكريةً جديدةً تُقلِّلُ من سلبية بعض الأفكار التي قد يكونُ القارئُ اكتسبها بفعل بعض التجارب الاجتماعية أو الشخصية.

ولقد أجاد أحمد بن محمد السلمي، المغربي، المعروف بابن خولة **إذْ يقول:**

إذا مـا الـدهرُ بَيَّتنـي بجَـيشٍ ... طَليعتُـه اهتمـامٌ واكتئـابُ
شَـنَنْتُ عليـه مـن جَلَـدي كَمينـًا ... أميـراهُ الذُّبالـةُ والكتـابُ!
وبِـتُّ أُنـصُّ مـن شِـيم اللّيـالي ... عجائـبُ في حقائقِهـا ارتيـابُ
أُرِيـغُ بهـا التسـلِّي مُسـتريحًا ... ولـيس علـىٰ الزمـانِ بهـا عِتـابُ

ذيل تاريخ بغداد: لابن الدبيثي (٢/ ٣٧٩).

وتمتينِ الأسلوب، وتأخيرِ الخَرَف[(١)]، وطِيبِ العَيش، وإجمامِ الفؤاد، وذهابِ الهمّ، وزوالِ الغمّ، وتفريحِ النفس، وتقويةِ الملَكَات، وبلوغِ التميُّز، والشعورِ بالسعادة، والوصولِ إلىٰ الإبداع، والترقِّي في مدارج الكمال......

❁ **والقراءةُ مِن قبلِ هذا ومِن بعدُ:** أداةٌ من أدوات المعرفة، وآلةٌ لتحصيل العلوم والفنون.

لهذا كلِّه؛ اجعلْها - أيّها الموفَّقُ - **عادةً وعبادةً**[(٢)].

❁ **يقول الأديبُ اللّوذَعيُّ: أبو عبدِ الرحمن بنُ عقيلٍ الظاهريّ** - وهو مِن كِبار القَرَأَةِ في هذا العصْر -: «مِن لَذّاتِ العلم أنْ تَقرأَ قائمًا، فقاعِدًا، فمُسْتلقِيًا، فمُنْكَبًّا!»[(٣)].

---

(١) **إنَّ القراءةَ المنتظمةَ** - كونَها واحدةً من الأنشطة الدِّماغية، ومصدرًا مُهمًا لتعزيز المهارات العقلية - تُقلِّلُ من فقدان الذاكرة وتَحِدُّ من الإصابة بمرض (**الزَّهايْمر**)؛ فقد أظهرتْ بعضُ الدراسات أنّ القرّاءَ من المصابين بمرض (**الزَّهايْمر**) ظهرتْ عليهم أعراضُ الإصابة بالمرض في وقتٍ متأخّرٍ، مقارنةً بغيرهم من غير القرّاء.

فالمطالعةُ المستمرّةُ تضمن لصاحبها نشاطًا أفضلَ علىٰ مستوىٰ الذهن والذاكرة.

❁ وقد يكونُ من المفيد هنا تنشيطُ العقل بتمارينَ بسيطةٍ علىٰ التذكُّر، من خلال عمل تلخيصاتٍ للكتب علىٰ شكل رسوم توضيحيةٍ، أو عناصرَ موجَزةٍ، أو وَضْعِ أسئلةٍ أثناءَ قراءةِ الكتابِ ثم العودةُ للإجابة عنها شفهيًّا أو تحريريًّا؛ لمعرفة مدىٰ استيعابِ الكتابِ المقروء.

(٢) **قال الشيخُ محمد رشيد رضا:** «مَن يُطالِعْ كتبَ المِلَل بقصد الاستعانة علىٰ تأييد الحق وردّ شبهات المعترضين ونحوه، وهو مستعدٌّ لذلك، فهو عابدٌ لله تعالىٰ بهذه المطالعة، وإذا احتيجَ إلىٰ ذلك؛ كان فرضًا لازمًا». مجلة المنار (٧/ ٢٥٨).

(٣) تباريح التباريح (ص/ ١٥).

❁ وكان العلّامةُ محمودُ محمد شاكر (ت ١٤١٨ هـ) – كما نقل عنه ابنُه فِهْر – يقول: «إنّ وظيفتي الأولىٰ والأخيرة أنْ أقرأ!».

❁ وقد عَدَّ الشيخُ العلّامةُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ (ت ١٩٦٥ م) الكَسَلَ عن المطالعة إحدىٰ النقائصِ في حياتنا العلمية الحاضرة! ثم قال بعد ذلك: «الحقَّ أقولُ: إنّ شبابَنا المتعلّمَ كسولٌ عن المطالعة، والمطالعةُ نصفُ العلم أو ثُلُثاه.

فأوصيكم يا شبابَ الخير بإدمانِ المطالعةِ والإكْبابِ عليها، ولْتكُن مطالعتُكم بانتظامٍ؛ حِرصًا علىٰ الوقت أن يَضِيعَ في غير طائلٍ. وإذا كنتُم تريدون الكمالَ فهذه إحدىٰ سُبُل الكمال»[١].

لذا؛ فينبغي أنْ نَجعلَ نُصْبَ أعيُننا دائمًا أصحابَ الهِمَمِ العالية في القراءة، وهم كُثُرٌ؛ لكنني أكتفي هنا بنموذجيْنِ فقط: **قديمٍ، ومعاصرٍ**.

❁ فهذا الإمامُ ابنُ الجوزيِّ رحمه الله – وهو من المتقدِّمين (ت٥٩٧هـ) – يقول عن نفسه: «وإني أُخبِرُ عن حالي: ما أشبعُ من مطالعة الكتب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أرَهْ، فكأني وقعتُ علىٰ كنزٍ! ولقد نظرتُ في ثَبَتِ[٢] الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامِيَّة[٣]؛ فإذا به يحتوي علىٰ نحو ستة آلاف مجلد،

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١/ ١٥٤).
(٢) **الثَّبَت**: هو الفِهْرِس، وجَمعُه: أثبات.
(٣) **المدرسةُ النِّظَاميّةُ**: نسبةً إلىٰ الوزير نِظَام المُلْك لأنه الذي بناها، افتُتِحتْ في عام (٤٥٩هـ)، وتولَّىٰ التدريسَ فيها نخبةٌ من كبار العلماء، منهم: أبو إسحاق الشِّيرازي، والغزَّالي، والشَّاشي القفّال، وغيرُهم. **انظر**: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي (١٦/ ٩١).

وفي ثَبَتِ كتبِ أبي حنيفة، وكتبِ الحميدي، وكتبِ شيخِنا عبدالوهاب، وابنِ ناصر، وكتبِ أبي محمد بن الخشّاب - وكانتْ أحمالًا - وغيرِ ذلك من كلِّ كتابٍ أقدِرُ عليه، ولو قلتُ: إنّي **طالعتُ عشرينَ ألفَ مجلَّدٍ**، كان أكثرَ!! وأنا بعدُ في الطَّلَب!

فاستفدتُ بالنظر فيها من مُلاحظة سِيَرَ القوم، وقَدْر هِمَمِهِم، وحفظِهم، وعباداتِهم، وغرائبِ علومِهم، ما لا يعرفه من لّم يُطالعْ، فصِرتُ أسْتَزْرِي ما الناسُ فيه، وأحتقرُ هِمَمَ الطلّاب! ولله الحمد»(١).

❁ **وهذا الشيخُ أبو ترابٍ الظاهريُّ** رَحِمَهُ اللهُ - وهو من المعاصرين (ت ١٤٢٣هـ) - ذُكِرَ في ترجمته أنه قال: «مجموعُ الكتب التي طالعتُ، أو درستُ، **نحوَ ثمانية آلاف كتابٍ**، من مختلف العلوم!!».

❁ **وحسْبُك أنْ تعلمَ أنّه قرأ في اللغة فحسب** - علىٰ أبيه، أو مطالعةً -:

كتابَ «**فقه اللغة**» للثعالبي، و«**الصّحاح**» للجوهري، و«**لسان العرب**» لابن منظور، قرأه ثلاثَ مرّاتٍ! وعلّق عليه، و«**تهذيب اللغة**» للأزهري، و«**تاج العروس**» للزبيدي، و«**العين**» للخليل، و«**الجمهرة**» لابن دريد، و«**مجمل اللغة**» لابن فارس، و«**النهاية في غريب الحديث والأثر**» لابن الأثير، و«**الفائق**» للزمخشري، و«**مقاييس اللغة**» لابن فارس، و«**أساس البلاغة**» للزمخشري!!!

❁ **ثم عَكَفَ علىٰ الحفظ؛**

فحفظ أربعينَ ألفَ مادةٍ من «القاموس المحيط»!!

---

(١) صيد الخاطر (ص/ ٤٥٤).

وحفظ عشرةَ آلافِ بيتٍ، سوىٰ القصائد الشهيرة!!

وحفظ خمسينَ ألفَ حديثٍ نبويٍّ!!(١).

❀ ولذا تجدُ العلماءَ يُثنونَ علىٰ الشخص بسَعَة الاطّلاع، ويَذمُّونه بقِلّة الاطّلاع(٢).

---

(١) انظر: أبو تراب الظاهري، صفحاتٌ من حياته وتأملاتٌ في أدبه: لعبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم (ص/ ٣٦ و٤٠ و١٢٣) ط مكتبة الملك فهد الوطنية.

❀ وستأتي في آخر الكتاب تجربةُ الشيخ العلّامة/ محمد البشير الإبراهيمي وقراءاتُه الموسوعيّة للكتب الأدبيّة.

(٢) من الأمثلة علىٰ ذلك:

❀ - قولُ ابنِ حزمٍ في «الإحكام في أصول الأحكام» - طبعة دار الحديث - (٤/ ٥٦٥): «وهذا مالكٌ يقول في»موطئه«: إذْ ذَكَر وجوبَ ردّ اليمين علىٰ المدَّعِي إذا نكل المدَّعَىٰ عليه. ثم قال: (هذا ما لا خلاف فيه عن أحدٍ من الناس، ولا في بلدٍ من البلدان)، قال أبو محمد: وهذه عظيمةٌ جدًا، وإنّ القائلين بالمنع من ردّ اليمين، أكثرُ من القائلين بردّها!».

❀ - وقال الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس (٣/ ٣٢٠): «والتَّعَاجِيبُ: العَجَائِبُ، لا واحد لها من لفظها. وفي «الناموس»: (الأظهرُ أنها الأعاجيب). وهذا يدل علىٰ قِلّة اطّلاعه علىٰ النقل، وقد أسْبقْنا في المطايب ما يفضي إلىٰ العجائب، وقد نبّه علىٰ ذلك شيخُنا في «حاشيته» وكفانا مؤونة الردّ عليه، عفا اللهُ عنهما».

❀ - وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١/ ٢٤٩): «وأما قولُ صاحب «بذل المجهود»: (قال به جماعةٌ من كُبراء الصحابة منهم عليٌّ وابنُ مسعود وابنُ عمر وابنُ عباس رضي الله عنهم، فتبيّن أن الحديثَ ورد مَوردَ الشهرة والاستفاضة؛ حيثُ عمل به الصحابة وتلقّوه بالقبول ومِثلُه مما يُنسخ به الكتابُ)، فمبنيٌّ علىٰ قِلّة اطّلاعه؛ فإنه لم يثبت بسندٍ صحيحٍ عن أحدٍ من الصحابة التوضّؤُ بالنبيذ».

❀ - وقال أيضًا في (٤/ ٢٦٨): «تنبيهٌ: قال صاحبُ «العَرْف الشذي» ما لفظه: (لي بحثٌ في أنّ ابنّ عباس جاء إلىٰ المدينة مع أبيه في السنة التاسعة وأنها عَتَقَتْ قبلها وكانت تخدم عائشة؛ فإنه عليه السلام سألها عن شأن عائشة في قصة الإفك)، قلتُ: قد وقع في هذه الشبهة من =

❁ **وهذه بعضُ الـمَرَاشِدِ**[١] **والقواعدِ للقراءةِ المثمرةِ المفيدة**، كنتُ قد أدرجتُ بعضًا منها ضِمنَ مبحثٍ من مباحث كتابي «**التأصيل العلمي**»، ثمّ رأيتُ إفرادَها في كتابٍ مستقلٍّ[٢]؛ إذْ ربّما لا يَقِفُ الراغبُ في معرفتِها علىٰ ذلك الكتاب[٣].

=

قلّة اطلاعه....» إلخ كلامه.

❁ - **وقال صِدّيق حسن خان** في أبجد العلوم (ص/ ٧١١) عن شيخه صدر الدين خان بهادر: «وَلِي الصدارةَ بدِهْلي من جهة البرطانية - حكّام الهند اليوم - فاستمرّ عليها إلىٰ الفتنة، وأخذ الحديث عن الشيخ المهاجر، وله رسالة: «منتهىٰ المقال في شدّ الرحال» قال في «اليانع الجني»: قد تأنّق فيها سلّمه الله تعالىٰ. انتهىٰ. أي: أتىٰ بتحقيقاتٍ رائقةٍ.

قلتُ: هذا غلطٌ بحتٌ، بل زلّ فيها زَلّةً عظيمةً تُنبئ عن قِلّة اطّلاعه علىٰ أدلّة المسألة ومَاجَرَيَاتِها، وقد ردّ عليه فيها بعضُ علماء الهند، ويُغني عن ذلك كلّه كتابُ «الصارم المنكي» في هذا الباب».

❁ - **وقال مجدِّدُ البيان العربيّ: مصطفىٰ صادق الرافعي**، في كتابه الماتع «تحت راية القرآن» (ص/ ٩٤) عن الدكتور/ طه حسين: «ولْتعلَمْ إنْ كنتَ لمّا تعلم، أنّ الرجلَ مُفسِدٌ لا مُصلِحٌ، ومُلفِّقٌ لا مُحقِّقٌ، وأنّ مَأْتىٰ ذلك فيه من ضعف اطّلاعه علىٰ مادة التاريخ الأدبيّ، فهو يتوسّعُ بالثرثرة، ومِن نقْص خياله فهو يتزيَّدُ بالشكّ، ومِن انحطاط قوّته البيانيّة فهو يتماسكُ بمحامل الجدل!».

(١) **الـمَرَاشِد**: هي الطُّرُقُ المستقيمةُ. قال ابنُ فارس: «(رشد) الراءُ والشينُ والدالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علىٰ استقامة الطريق. فالـمَراشِدُ: مَقَاصِدُ الطُّرُق. والرَّشَدُ والرُّشْدُ: خِلافُ الغَيِّ. وأصابَ فلانٌ مِنْ أمرِهِ رَشَدًا ورُشْدًا ورِشْدَةً». مقاييس اللغة (٢/ ٣٩٨).

(٢) تناولتُ موضوعَ القراءةِ أيضًا في كتابيْن، هما:

❁ كتاب «**القواعدُ المنهجيّةُ للقراءةِ التأصيليّة**».

❁ وكتاب «**القراءةُ الـمُبَرْمَجَةُ: تَهْيِئَةٌ وتَطْبيقٌ**».

(٣) مع التنبُّه إلىٰ أنّ في هذا الكتاب من القواعد ما ليس في كتاب «التأصيل العلمي»، كما أنّ في «التأصيل العلمي» ما ليس هنا.

كما زِدتُ عليها بعضَ القواعدِ التي لم تُذكَرْ ثَمَّتَ، وحَشّيتُه ببعض الفوائد الطبّيّة والنفسيّة المعاصرة عن القراءة، ممّا نُشرَ في المواقع المتخصِّصة علىٰ (الشنكبوتيّة)، فكان هذا الكُرَّاسُ!

❀ **وقد سمَّيتُه: «الـمَرَاشِد السَّدِيدَة لِلقِرَاءَةِ الـمُفِيدَة»**. **وذيَّلتُه** بمقالةٍ فائقةٍ للشيخ العلّامة/ **محمد البشير الإبراهيميّ**، نُشِرَتْ في أوائل الخمسينيّات من القرن الماضي في صحيفة (الأهرام) المصريّة، ذَكَرَ فيها رحمه الله تجربتَه الثَّرِيَّةَ مع القراءة؛ لعلَّها تكون حافزًا لناشئتِنا وطلّابِنا لمزيدٍ من القراءة والتحصيل!

وبالله تعالىٰ التوفيق، وهو الهادي سواءَ السبيل.

وكتب

أحمدُ بنُ عليّ بنِ أحمدَ القَرْني

طابة

١٤٤٠هـ





المَرَاشِدُ السَّدِيدَة لِلقِرَاءَةِ المفيدَة



هذه بعضُ الـمَرَاشِدِ والقواعدِ المفيدةِ في القراءة، أرجو أن يعتنيَ بها القارئُ اللبيبُ؛ ليَخرجَ بأعلىٰ قَدْرٍ من الفائدةِ في قراءاتِه ومطالعاتِه.

وقد أوردتُها هنا عَفْوَ الخاطرِ، من غيرِ مُراعاةِ ترتيبٍ معيّنٍ، واللهُ الهادي، وعليه اعتمادي، وإليه استنادي، وبه اعتضادي.

إِجعلْ القراءةَ هي الأصلَ في حياتك!

بمعنىٰ أنْ تجعلَ وقتَكَ كلَّه للقراءةِ، وما سوىٰ ذلك يكون تَبَعَا!

وقد تقدّم معنا في المقدّمة قولُ أبي عبدِ الرحمن بنُ عقيلٍ الظاهريّ: «مِن لَذّات العلم أن تَقرأَ قائمًا، فقاعِدًا، فمُسْتلقِيًا، فمُنْكَبًّا!».

فاجعلْ يا صَاحِ الكتابَ أنيسَكَ وسميرَكَ، واصْطحبْه معكَ في حِلّكَ وتَرْحَالِكَ، وحَضَرِكَ وسَفَرِكَ، وحالَ صِحّتكَ ومرضِكَ، وعندَ الأكْلِ والشربِ، والقِيامِ والقُعودِ، والرُّكوبِ والـمَشْي، وعندَ فِرَاشِ النومِ، فمَنْ وَفّىٰ بهذا فهو الذي يَصْدُقُ عليه اسمُ (القارِئِ) حقيقةً، وإلّا فَلا تَعُدَّهُ!

ذَكَرَ يحيىٰ بنُ يحيىٰ الليثيُّ - راوي الموطأ - حديثًا يرويه عن يحيىٰ بن أبي كثير، أنه قال: «**لا يُستطاعُ العلمُ براحَةِ الجِسم**». **فقال:** وإنّ رجلًا ممّن بلغه هذا الحديثُ من طلبة العلم (يعني نَفْسَه) ذَكَرَه وهو علىٰ بطْن امرأته، قبل أن يُفْضِي إليها، فأخذَ دَفْترًا من العلم ينظرُ فيه!![١].

وقال الجاحظُ: «سمعتُ الحسنَ اللؤلؤيَّ يقول: غَبَرْتُ[٢] أربعينَ عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتّكأتُ إلاّ والكتابُ موضوعٌ علىٰ صَدْري!»[٣].

وكان الفتحُ بنُ خاقانَ يَحملُ الكتابَ في كُمّه أو خُفّه، فإذا قام من بين يديْ المتوكّل ليبولَ أو ليصلّيَ، أخرج الكتابَ فنظرَ فيه وهو يمشي، حتىٰ

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك: للقاضي عياض (٣/ ٣٨٦).

(٢) أي: مَكَثْتُ. قال في العين (٤/ ٤١٣): «غَبَرَ الرجل يَغْبُرُ غُبُورًا أي مكثَ».

(٣) الحيوان (١/ ٥٢ - ٥٣). وعنه الثعالبي في اللطائف والظرائف (ص/ ٦٦).

يبلغَ الموضعَ الذي يريدُ، ثم يصنعُ مثلَ ذلك في رجوعه إلىٰ أن يأخذَ مجلسَه![١].

☜ وقال أبو هلال العسكري: «حُكي عن ثعلب أنه كان لا يفارقُه كتابٌ يدرُسُه، فإذا دعاه رجلٌ إلىٰ دعوةٍ شَرَطَ عليه أنْ يُوسِعَ له مقدارَ مِسْوَرَةٍ[٢]، يَضعُ فيها كتابًا ويقرأ!

⇦ وكان أبو بكر الخيّاط النحوي يَدرُسُ جميعَ أوقاته، حتىٰ في الطريق، وكان ربّما سقطَ في جُرُفٍ، أو خَبَطَتْه دابةٌ!

.... وكان بعضُهم يقول: متىٰ تبلغُ من العلم مبلغًا يُرْضِي، وأنت تُؤْثِرُ النومَ علىٰ الدرْس، والأكلَ علىٰ القراءة؟!»[٣].

☜ وقال ابنُ عقيلٍ الحنبليّ عن نفسِه: «أنا أُقَصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكْلي، حتىٰ أختارُ سَفَّ الكَعْكِ وتَحَسِّيهِ بالماءِ علىٰ الخُبزَة؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضْغِ! تَوَفُّرًا علىٰ مطالعةٍ، أو تسطيرِ فائدةٍ لم أدرِكْها فيه»[٤].

☜ وقال الثعالبيُّ: «كثيرًا ما أذكُرُني آكُلُ الوَجْبةَ وأنا أنظرُ في كتابٍ جديدٍ وقعَ إليّ، ولا أصبر عنه إلىٰ وقت فراغي من الأكل! وسمعتُ أبا نصرٍ سهلِ

---

(١) انظر: الفهرست: لابن النديم (ص/ ١٤٨)، وتقييد العلم: للخطيب (ص/ ١٣٩)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٤٨/ ٢٢٣).

(٢) المِسْورة: مُتَّكأٌ من أَدَمٍ، وجمعُهَا الْمَساوِر. تهذيب اللغة: للأزهري (١٣/ ٣٥).

(٣) الحثّ علىٰ طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص/ ٧٧).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب (١/ ٣٢٥).

بنِ المرزبان يقول: كثيرًا ما أفعلُ مثلَ ذلك!»[١].

⇦ **وكان أحمدُ بنُ عبد الله المهدي القيرواني** آيةً في الدراسة والمطالعة، لا يَكادُ يسقطُ الكتابُ من يده، حتىٰ عند طعامه![٢].

⇦ **وكانتْ لمحمد بن سُحنون التنوخي** سُرِّيّةٌ (جارية) يقال لها: أمُّ قُدَام. فكان عندَها يومًا، وقد شُغِل في تأليف كتابٍ إلىٰ الليل، فحضر الطعامُ، فاستأذنتْه، فقال لها: أنا مشغولٌ الساعةَ. فلمّا طال عليها، جعلتْ تُلْقِمُه الطعامَ، حتىٰ أتتْ عليه. وتَمادىٰ هو علىٰ ما هو فيه إلىٰ أنْ أُذِّنَ لصلاة الصُّبْح! فقال: شُغِلْنا عنك الليلةَ يا أمَّ قُدَام، هاتِ ما عندَك! فقالت: قد واللهِ يا سيدي أَلْقَمْتُه لكَ، فقال لها: ما شعرتُ بذلك!![٣].

☜ **وقال ابنُ القيّم:** «حدَّثني أخو شيخِنا عبدُ الرحمن بنُ تيمية عن أبيه قال: كان الجدُّ (يعني مجدَ الدين) إذا دخل الخلاءَ يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب وارفعْ صوتَك حتىٰ أسمعَ!

وأعرفُ مَن أصابه مرضٌ من صُداعٍ وحُمّىٰ وكان الكتابُ عند رأسِه، فإذا وَجَدَ إفاقةً قرأَ فيه، فإذا غَلَبَ وَضَعَه! فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك، فقال: إنَّ هذا لا يَحِلُّ لك؛ فإنك تُعِينُ علىٰ نفسِكَ، وتكونُ سببًا لفَوَاتِ مطلوبِك»[٤].

---

(١) اللطائف والظرائف (ص/ ٦٦).

(٢) انظر: ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٦/ ٢٧٣).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢١٥).

(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص/ ٧٠).

⇦ **وجاء في ترجمة أحمد بن سليمان بن نصر الله بن إبراهيم الشهاب البُلْقاسي** (ت ٨٥٢ هـ) أنه كان محبًّا للعلم والمذاكرة والمباحثة، غيرَ مُنفَكٍّ عَن التَّحْصِيلِ، بِحَيْثُ إنه كان يُطالِعُ في مَشْيِهِ! ويُقرئُ الْقراءاتِ في حالِ أكْلِهِ؛ خوفًا من ضيَاعِ وقتِه في غيرِه![١].

⮌ وأخبارُ العلماء في ذلك كثيرةٌ جدًا، لكنْ حسبُكَ هذه اللّمْحَة.



(١) **انظر**: الضوء اللّامع: للسخاوي (١/ ٣١١).

إذا قرأتَ كتابًا فاقرأْهُ قراءةَ مُودِّعٍ!

بمعنىٰ: أنْ تقدِّرَ في ذهنك وأنتَ تقرأُ أنك لن تعودَ إلىٰ ذلك الكتاب مرّةً أخرىٰ؛ فإنك حينئذٍ سوفَ تَسْتوعبُه استيعابًا تامًّا إن شاء الله.

وقد كانتْ هذه طريقةُ **العلَّامة الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي**، المشهور بخطيب دُوما[١] (ت ١٣٠٨هـ)، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ **يقول لطلّابه**: «لا ينبغي لمن يقرأُ كتابًا أن يتصوّرَ أنه يريدُ قراءتَه مرةً ثانيةً؛ لأن هذا التصوّرَ يمنعُه عن فهم جميع الكتاب، بل يتصوّرُ أنه لا يعود إليه مرةً ثانيةً أبدًا»[٢].



---

(١) **مدينة دُوما**: هي أهمُّ مدن محافظة ريف دمشق في سوريا ومركزها الإداري، وهي أكبرُ مدن غُوطة دمشق، تبعد عن دمشق حوالي (٩) كيلو مترات.

(٢) **انظر**: المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل: لابن بدران (ص/ ٤٨٨).

ابدأْ بالأهمِّ فالمهمِّ فيما تَقرأ.

وهـذا يختلـف مـن شـخصٍ إلـىٰ آخـر، ومـن وقـتٍ إلـىٰ آخـر، ومـن بلـدٍ إلىٰ آخر.

فلا يَبدأُ الطالبُ بالكُتب الفِكْريّة، وهو لم يتشبّعْ بعدُ من كتب العقيدة! ولا بمسائل البيوع، وهو ليس ممّن يُضاربُ في الأسواق! ولا بمسائل الطلاق، وهو لم يتزوّجْ بعدُ! وإنما يُقدِّم الشيءَ الذي يحتاجه من الأبواب والمسائل أولًا، وهو ما يُسمّىٰ فُرُوضَ الأعيان، لا سيّما ما يتكرّر كثيرًا كمسائل التوحيد والطَّهارة والصلاة... إلخ.

قال القَطِيعيُّ: «دخلتُ علىٰ أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) فقلتُ: أتوضَّأُ بماء النُّوْرَة؟ فقال: ما أُحِبُّ ذلك. قلتُ: أتوضَّأُ بماء الباقِلّاء؟ قال: ما أُحِبُّ ذلك. قلتُ: أتوضَّأُ بماء الوَرْد؟ قال: ما أُحِبُّ ذلك. قال: فقُمتُ، فتعلَّق بثوبي، ثم قال: إيشْ[1] تقولُ إذا دخلتَ المسجدَ؟ فسكتُّ! فقال: وإيشْ تقولُ إذا خرجتَ من المسجد؟ فسكتُّ! فقال: اذهبْ فتعلّمْ هذا»[2].

---

(١) فائدة = إيشْ: كلمةٌ منحوتةٌ من قولهم: (أَيُّ شيءٍ).

قال ابن دَرَسْتَوَيْه في تصحيح الفصيح وشرحه (ص/ ٣٦): «قد تَلْهَجُ العربُ الفُصَحاءُ بالكلمة الشاذّة عن القياس، البعيدة من الصواب، حتىٰ لا يتكلّموا بغيرها، ويَدَعوا المُنْقاسَ المطَّرِدَ المختارَ، ثم لا يَجِبُ لذلك أن يُقال: هذا أفصحُ من المتروك.

ومـن ذلـك قـولُ عامـة العـرب: أَيْـش صـنعتَ؟ يريـدون: أيَّ شـيءٍ صـنعتَ؟ وقـولهم: لا بَشَانِيكَ، يعنون: لا أبَا لِشانِيك. وقولُهم: لا تُبَلْ، أي لا تُبال ياهذا».

وانظر: فقه اللغة: للثعالبي (ص/ ٢٥٠)، وأسرار العربية: للأنباري (ص/ ١٧٦)، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي (١/ ١٦٥).

(٢) طبقات الحنابلة: لابن أبي يعلىٰ (١/ ٤١).

☜ **وقال ابنُ قُتيبة:** «قد يكونُ الرّجلُ متبوعًا في الأدب، قد سَمَق فيه، وأخذ بالحظِّ الأوفىٰ منه، إلا أنه أغفل شيئًا من الجليل كان أولىٰ به من بعض ما حَفِظَ، فلَحِقَتْهُ فيه النّقِيصَةُ، وتَرجِعُ عليه منه الهُجْنَةُ[1]، كطالبِ غوامضِ الفقهِ، وقد أغفل أبوابَ الصلوات والفرائض! وكطالب طُرُق الحديث، وقد أغفل متونَها ومعانيَها! وكطالب عِلَل النّحو وتصاريفِه، وهو يَلحَنُ في رُقْعةٍ إنْ كتبَها، أو بيتِ شعرٍ يُنشِدُه!»[2].

⇦ **وكذلك الحالُ بالنسبة للعلوم والبلاد،** فتجدُ مَن يبدأُ بعلم البلاغة مثلًا، وبلادُه تعُجُّ بالشِّركيّات والبِدَع! أو مَن يبدأ بعلمِ الفرائض ويحفظ فيه (الرَّحَبِيّة)، وهو لم يحفظْ بعدُ منظومةً في أصول الفقه، أو مصطلح الحديث! وهذا من تقديم المفضول علىٰ الفاضل؛ وسببُه عدمُ فِقه الأولويّات.



(١) **الهُجْنَةُ:** القُبْحُ والعيْب. انظر الصحاح: للجوهري (٧/ ٦٧)، والمحيط في اللغة: للصاحب بن عباد (٣/ ٣٨٠).
(٢) المعارف (ص/ ٣).

أفضلُ أنواع القراءة وأعظمُها رُسوخًا؛ ما كان وليدَ مباحَثَةٍ ونقاشٍ.

لأنّ المسألة إذا نُوقشتْ، ثمّ قُرِئَتْ، وبُحثَ عنها في مظانّها، رَسَخَتْ رُسوخَ الجبال الشُّمّ!

وقد كان هذا دَيْدَن العلماءِ قديمًا وحديثًا، فكانوا إذا تباحَثوا في مسألةٍ مَّا واختلفوا فيها، طلبوا الكتبَ وقرأوها في مصادِرِها ومظانِّها؛ تحريًّا للصوابِ، ورفعًا للنّزاع، وازديادًا من العلم، ولِتتقرّرَ المسألةُ في أذهانهم وتَرسَخَ.

وهذا أمرٌ معلومٌ لا يحتاجُ أن نُدلِّلَ عليه بطائلٍ من القول[(١)].

---

(١) من ذلك مثلًا؛ أنّ عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبّان: لما جَرَتْ له المسألةُ التي تكلَّم فيها في الإيمان، وخالفه أبو محمد ابنُ أبي زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والقابسيُّ، والسبائيُّ، والجماعةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وحَدَثَ بينهم وبين بعضهم وحشةٌ بسببها، جعل موعدًا للإلقاء. وألقىٰ عليهم كتابَ الوضوء. فخالفوه في مسألةٍ. فقال لهم: اسمعوا ما أقول: درستُ هذا الكتاب ألفَ مرةٍ!! فأبَوْا إلّا مخالفتَه. فقام بهم الىٰ داره، وأخرج الكتاب وأراهم المسألةَ كما قال. ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٦/ ٢٥٠).

لطيفة = مِن عجيبِ ما نقلوا عن الشيخ المحدِّث/ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشدّة ولعه بالبحث والتفتيش، أنه في أيامه الأخيرة كان يقول في نومِه: هاتوا كتابَ العِلل، هاتوا كتابَ كذا، هاتوا كتابَ كذا، هاتوا «الجرح والتعديل»!!

ومرةً قال أثناءَ النوم وهو يُحرِّك يدَه كهيئة الكاتِب: هاتوا «سننَ أبي داود» تَنْحَلّ المشكلة!

وقال ابنُه: ذاتَ مرةٍ أثناءَ نومه تكلَّمَ فجأةً، فقال: هاتِ كتابَ «الترغيب والترهيب» المجلد الأول، فأتيتُه به، فقال: افتحْ، ففتحتُ، قال: عُدَّ: واحد، اثنين، ثلاثة أحاديث، هذه في الطول تقريبًا سواء، قلتُ له: لا، فيه واحد طويل، قال: إمشِ، قلتُ: هذا الحديث الثالث طويل، قال: مَنْ رواه؟ قلتُ: فلان، قال: خلاصْ، أَعِدْ الكتابَ!!

اعلمْ أنّ القراءةَ مدارسُ.

وهذا أمرٌ لا يكاد يُدرِكُه كثيرٌ من العلماء، فضلًا عن طُلّاب العلم!

وقد وجدتُ بعضَ مَنْ فَقِهَ هذه الطريقة وقرأ بها؛ قد أصبحَ موسوعةً عِلْميّةً تمشي علىٰ الأرض.

وهذه المدارسُ تنقسم إلىٰ:

* **مدارسَ فِكْرية.**
* **ومدارسَ موضوعيَّة.**

والمدارسُ الفكريَّةُ تنقسم إلىٰ:

- **مدارسَ إقليميَّة.**
- **ومدارسَ زمنيَّة.**

والمدارسُ الإقليميّةُ تنقسم إلىٰ:

- **مدرسةٍ عامةٍ:** كأنْ يهتمَّ القارئُ بالحركةِ العلميةِ في الأندلسِ مثلًا، ويقرأَ عن هذا الموضوع.

- **ومدرسةٍ خاصةٍ:** كأنْ يهتمَّ بالحديث، أو الفقه، أو اللغة، في الأندلس مثلًا، ويقرأ عن هذا العلم فيها.

أمَّا المدارسُ الفِكْريةُ الزمنيَّةُ: فمِثْل أن يأخذَ مدرسةً فِكريّةً متكاملةً، ويقرأَ جميعَ كتبِ تلك المدرسة، ونتاجِها العلميِّ.

وذلك مثل: مدرسة شيخ الإسلام ابن تيميَّة، فهذه المدرسةُ السلفيّةُ المبارَكةُ؛ مدرسةٌ عِلميّةٌ متكاملةٌ، أخرجتْ شخصياتٍ عِلميّةً عِملاقةً؛

كالحافظِ المِزِّي، والإمامِ ابنِ القيّم، والحافظِ الذَّهبي، والحافظِ ابنِ رجب، والحافظِ ابنِ عبد الهادي، والحافظِ ابنِ كثير، وغيرِهم.

⇦ فالذي يَصبِرُ نفسَه علىٰ قراءة مؤلفاتِ شيخ الإسلام ومؤلفاتِ هؤلاء الأعلام؛ سيخرج بفائدةٍ علميّةٍ كُبرىٰ؛ لأنها مدرسةٌ عِلميّةٌ متكاملةٌ.

ومثلُها مدرسةُ الحافظِ العراقيِّ، حيثُ جمعتْ كوكبةً من العلماء الكبار؛ كابنِ حجرَ العسقلانيّ، وأبي زُرعةَ العِراقيّ، والهيثميّ، والبُوصيريّ، وغيرِهم من المحدِّثين.

ومثلُها مدرسةُ الشيخِ المجدِّدِ محمدِ بنِ عبدِ الوهابِ وأولادِه وأحفادِه أئمّةِ الدعوةِ، وتلاميذِهم[١].

---

(١) تنوير = أُحِبُّ أنْ أنبّه طلّابَ العلم هنا، إلىٰ أنّ كتبَ الشيخ العلّامة/ محمد بن صالح بن عُثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تُعدُّ (وحدَها) مدرسةً عِلميّةً شاملَةً متكاملَةً!

⬅ وذلك لأنها جمعتْ عدّةَ مزايا، منها:

١ – أنّ صاحبَها من كبارِ العلماءِ المحقّقين في هذا العصر، بلْ هو من المجدِّدين الأفذاذ.

٢ – أنّ أصلَ هذه الكتبِ دُروسٌ صوتيّةٌ مفرَّغةٌ، قام الشيخُ أوْ طُلّابُه بمراجعتها وتنقيحها، ممّا جعل عبارتَها سهلةً واضحةً حتىٰ لصغارِ طُلّابِ العلم، بحيثُ يستطيعُ كلُّ أحدٍ قراءتَها وفهمَها حتىٰ ولو لم يقرأْها علىٰ شيخ. وإنْ كنتُ ضِدَّ هذا الـمَنْحىٰ من المؤلَّفات!

٣ – أنها شاملةٌ لجميع العلوم والفُنون، ومعظمِ المتون، بحيثُ لو اقتصرَ عليها أحدٌ كفتْه وأغنتْه.

فلا يكادُ يُوجدُ متنٌ مشهورٌ إلّا وقد شَرَحَه الشيخُ.

٤ – أنّ لغتَها لغةٌ عِلميّةٌ موزونةٌ، بخلافِ كثيرٍ من الدروسِ الصوتيّة المفرَّغة التي لا تخلو من كثيرٍ من الحَشْو!

٥ – رُخْصُ ثمنِها، وكونُه في متَناوَلِ جمهورِ طُلّابِ العلم، بالنظر إلىٰ جودةِ طباعتِها، وحُسْنِ إخراجِها.

=

⇦ أمَّا المدارسُ الموضوعيَّةُ فتنقسم إلىٰ قسمين:

- **مدرسة متخصِّصة**: كأنْ يهتمَّ بالحديث، أو الأصول، أو النحو، ونحو ذلك، ويقرأ كلَّ أوْ مُعظمَ ما أُلِّف في ذلك الفن.

- **مدرسة شاملة**: وهو أنْ يَعْمَدَ إلىٰ مكتبةٍ من المكتبات الكبيرة؛ فيقرأَها من أوّلِها إلىٰ آخرِها، مستعينًا علىٰ ذلك بتصنيف ديْوي العَشْري(١)، فيقرأ علىٰ هذا التصنيف من رقم واحدٍ إلىٰ ألفٍ.

⇦ وليس معنىٰ هذا أن يقرأ كلَّ ما يُقابلُه في المكتبة من الكتب! لأنّ هذا شِبْهُ متعذِّرٍ؛ لاسيّما المكتبات الكُبرىٰ. وإنما المقصودُ أن يَمُرَّ علىٰ جميع الكتب؛ لأنَّ أحوالَ الكتب تختلفُ:

فهناك كتبٌ ينبغي استيعابُها قراءةً.

=

٦ - توفُّرُ أُصولها الصوتيّة في قناة الشيخ الفضائيّة وفي الانترنت وفي الأشرطة وغيرِها، بحيثُ لو أراد شخصٌ الاستماعَ لشرح الشيخ وتحصيلَ باقي فوائد الدرْس كالأسئلة والمناقشات ونحوِها، فإنه يستطيعُ ذلك. ولا شكّ أنّ الجمعَ بينهما أفضلُ من قراءة الكتب فحسْب.

(١) وَضَعَ هذا النظامَ العالمُ الإمريكيُّ (مِلْفِلْ دِيْوِي)، وهو أولُ نظام تصنيفٍ للمكتبات بالمعنىٰ الحديث وأكثرُها شهرةً في الوقت نفسه، وقد صدرتْ الطَبعةُ الأولىٰ منه عام (١٨٧٦م)!

⬅ **ويقوم هذا النظامُ** علىٰ تقسيم المعرفة البشرية إلىٰ عشرة أقسام رئيسةٍ، ويتفرّع كلُّ واحدٍ من الأقسام الرئيسة إلىٰ عشرة شُعَب، تمثّل التفريعاتِ الرئيسةِ للموضوع. كما أن كلَّ شُعبةٍ تتفرّع بدورها إلىٰ عشرة فُروع حسبَ طبيعةِ الموضوع، وهكذا ينقسم كلُّ فرعٍ إلىٰ عشرةٍ، وبذلك يمكن أن يستمرّ التقسيمُ العشريُّ إلىٰ ما لا نهاية. راجعْ (وِيكيبيديا = الموسوعة الحرة).

وهناك كتبٌ الغرضُ منها معرفةُ مناهجِها وكيفيّةِ التعاملِ معها عند الحاجة إليها؛ كالمعاجم والقواميس والـمَعْلَـمَات(١).

---

(١) **فائدة = الـمَعْلَـمَات:** جَمعُ مَعْلَمَة، بمعنىٰ الكتاب الحاوي لأنواع العلوم والفنون. وهو اسمٌ لما يُطلقُ عليه اليوم **(دائرة معارف)** أو **(موسوعة)**. وهي أحسنُ كلمةٍ عربيةٍ تؤدِّي معنىٰ اللفظة الإفرنجية: «الأنسكلوبيديا».

ولعلّ مصطلح (مَعْلَمَة) أو (جَمْهَرَة) هو الأفصحُ والأكثرُ مُقاربةً من غيره؛ كما أنّ وَزْنَ (مَفْعَلَة) من الأوزان التي تدلّ علىٰ المكان الذي يَكثُر فيه الشيءُ - كما في معاجم اللغة -، والمكانُ قد يكون وعاءً وقد يكون أداةً، ووعاءُ العلمِ: الكتابُ.

بل جاء في كتاب «**فقه النوازل**» (١/ ١٠٢) للعلّامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ أنّ كلمة **(موسوعة)** ليس لها أصلٌ، وإنما هي اصطلاحٌ قريبُ العهد في صدْر القرن الثالث عشر، وأنها - وهذا من العجائب! - تصحيفٌ أعجميٌّ لكلمة (موضوع)!!

فقد نَقَلَ عن مجلة الأزهر: (لواء الإسلام ٢٦/ ١١٥٨) مقالًا بعنوان: الأدب والعلوم. جاء فيه ما نصُّه: «لطاش كبري زاده كتابٌ باسم: «موضوعات العلوم». ولـمّا كانت إحدىٰ مكتبات القسطنطينية، تدوِّن فهرسًا لمحتوياتها. أملىٰ أحدُ موظّفي المكتبة بلفظ «موسوعات» العلوم، لأن الأعاجمَ يلفظون الضادَ بقريب من لفظ: الظاء. فسمع الكاتبُ الضادَ: سينًا. فكتب اسم الكتاب «موسوعات العلوم».

وسمع الشيخُ إبراهيمُ اليازجي صاحب مجلة «الضياء» باسم هذا الكتاب وموضوعه فخُيِّل إليه أن كلمة (موسوعات) تؤدي معني (دائرة معارف) فأعلن ذلك في مجلّته! وأخذ به أحمد زكي باشا وغيرُه! فشاعت كلمة (موسوعةٌ) و (موسوعاتٌ) لهذا النوع من الكتب. وهي تسميةٌ مبنيّةٌ علىٰ الخطأ كما رأيت!

وكان العلامةُ أحمد تيمور باشا، والكَرْملي، وغيرُهما يرون تسمية دائرة المعارف باسم: (مَعْلَمة)؛ لأنه أصحُّ، وأرشقُ، وأدلُّ علىٰ المراد منه» اهـ.

وانظر: مجلة المنار (٢/ ٦١)، ومجلة لغة العرب العراقية (٣/ ١٤٦)، ومجلة التراث العربي، العدد ١٣ - ١٤ (ص/ ٧).

← **ومع ذلك** فقد جاء تصويبُ الكلمة في كتاب «معجم الصواب اللغوي» للدكتور أحمد =

وهناك كُتُبٌ يكفي فيها التَصفُّحُ السريعُ... وهكذا.



=

مختار عمر (١/ ٧٤١) حيثُ قال: «المشهور في مادة (وَسَعَ) أن يقال: وَسَعَ الكتابُ مسائلَ كثيرةً، فالكتابُ هو الواسعُ، والموسوعُ هو المحتَوىٰ أو المضمونُ؛ ويمكن تصويبُ إطلاق **(الموسوعة)** علىٰ الكتاب نفسه عن طريق المجاز المرسَل لعلاقة المحلِّيّة، أو يكون من باب القَلْب المعنويّ؛ علىٰ أنه قد جاء في «المصباح»: وَسَعَ الله عليه رزقَه، فالرزقُ موسوعٌ، ويمكن القياس عليه فيقال: وَسَعَ المؤلفُ الكتابَ، فالكتابُ موسوعٌ، ويعضدُه ما جاء في «اللسان»: هذا الوعاء يسعه عشرون كيلًا، أي يسع فيه عشرون كيلًا؛ ومن ثَمَّ تكون كلمةُ **(الموسوعةِ)** في دلالتها المحدَثَة علىٰ الكتاب الذي حوىٰ معارفَ موسوعةً من الفصيح، وهو ما أقرّه مجمعُ اللغة المصري». والله أعلم.

إِحرصْ علىٰ تكوينِ خِزانةٍ جامعةٍ، تضُمُّ أشْتاتَ الكتبِ، في جميعِ الفنونِ والمعارفِ.

لأنّ نُزهةَ العالمِ وطالبِ العلمِ كُتُبُه!

وكلّما كانت الخِزانةُ متنوّعةَ الكتبِ، جامعةً للفنونِ، - كالحديقةِ الغَنّاءِ، الكثيرةِ الأزهارِ، المتنوّعة الثمار - كانت السعادةُ بها أتمّ، والفرحةُ بها أعمّ. وما أحسنَ قولَ القائل:

وَأَلَـذُّ مَـا طَلَـبَ الْفَتَـىٰ بَعْـدَ التُّقَـىٰ ... عِلْـمٌ هُنَـاكَ يَزِينُـهُ طَلَبُـهُ
وَلِكُـلِّ طَالِـبِ لَـذَّةٍ مُتنـزَّهٌ ... وَأَلَـذُّ نُزْهَـةِ عَـالِمٍ كُتُبُـهُ!
يُسْـلِي الْكِتَـابُ هُمُـومَ قَارِئِـهِ ... وَيَبِـينُ عَنْـهُ إِذَا قَـرَا نَصَبُـهْ
نِعْـمَ الْجَلِـيسُ إِذَا خَلَـوْتَ بِـهِ ... لَا مَكْـرُهُ يُخْشَـىٰ وَلَا شَـغَبُهْ[١]

وقال الأميرُ أبو العباس المِيْكَالي: تذاكرْنا المتنزَّهاتِ يومًا وابنُ دُرَيدٍ حاضِرٌ، فقال بعضُهم: أنزَهُ الأماكن غُوطةُ دمشق، وقال بعضُهم: بل نَهرُ الأُبُلَّة، وقال بعضُهم: سُغْدُ سَمَرْقَنْد، وقال بعضُهم: نَهْرَوَانُ ببغداد، وقال بعضُهم: شِعْبُ بَوَّان[٢]، وقال بعضُهم: نُوبَهار بَلْخ.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر (٢/ ١٢٣٠).

(٢) لطيفة = رُوي عن المبرِّد أنه قال: قرأتُ علىٰ شَجرةٍ في شِعْب بَوّان هذه الأبيات:

إذا أشـرفَ المكـروبُ مـن رأسِ تَلْعَـةٍ ... علـىٰ شِـعْبِ بَـوّانٍ أفـاقَ مِـن الكَـرْبِ
وألهـاه بطـنٌ كـالحريرَةِ مَسُّـهُ ... ومُطَّـرِدٌ يجـري مـن البـارِدِ العَـذْبِ

=

فقال ابنُ دُرَيْدٍ: هذه مُتنزَّهاتُ العيون، فأين أنتم عن متنزَّهاتِ القلوب؟! قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: «عُيون الأخبار» للقُتَبِي، و«الزَّهَرة» لابن داود، و«قَلَق المشتاق» لابن أبي طاهر.

ثم أنشأ يقول:

ومَـنْ تَـكُ نُزهتُـه قَيْنَـةٌ ... وكـأسٌ يُحَـثُّ وكـأسٌ يُصَـبْ

فنُزهتُنـا واسـتراحتُنا ... تَلاقِـي العُيـونِ، ودَرْسُ الكُتُـبْ[(١)]

⇦ ولـمَّا وصف الجاحظُ الكتابَ قال فيه: «نِعْمَ الـذُّخْرُ والعُقْدَةُ هـو، ونِعْـمَ الجليسُ والعُدّة، ونِعْـمَ النُّشْـرةُ والنُّزهَـةُ، ونِعْـمَ المشْـتَغَلُ والحِرْفـة».

إلـىٰ أنْ قـال: «وبعـدُ: فمتـىٰ رأيـتَ بُسـتانًا يُحمَلُ في رُدْن[(٢)]، ورَوضـةً تُقَلُّ في حِجْر؟!»[(٣)].

=

وطِيْـبُ ثِمـارٍ في رِيـاضٍ أَرِيضَـةٍ ... علـىٰ قُـرْبِ أغصـانٍ جَنَاهـا علـىٰ قُـرْبِ

فبـالله يـا ريـحَ الجَنـوبِ تَحمَّلـي ... إلـىٰ أرضِ بغـدادٍ سَـلامَ فتـىً صَـبِّ!

وإذا أسفلَ منه مكتوبٌ:

ليـتَ شِـعْري عـن الـذين تَرَكْنـا ... خلفَنـا بـالعِراقِ هـل يَـذكُرونَا

أمْ لعـلّ المـدىٰ تَطـاولَ حتّـىٰ ... قَـدُمَ العَهـدُ بعـدَنا فَنَسُـونَا!

البلدان: لابن الفقيه (ص/ ٤٠٨).

(١) انظر: معجم الأدباء (٦/ ٢٤٩٨)، والمنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص/ ١٥٤).

(٢) الرُّدْنُ: مُقَدَّمُ كُمِّ القميص. انظر: العين: للفراهيدي (٨/ ٢١)، والجراثيم: لابن قتيبة (١/ ٣٠٥).

(٣) الحيوان (١/ ٣٨ و٣٩).

☜ وقال الخطيبُ البغداديُّ: «**قال بعضُ أهلِ العلم**: ينبغي للمرء أن يَذْخَرَ أنواعَ العلوم، وإن لّم تكنْ له بمعلوم، وأن يستكثرَ منها، ولا يعتقدَ الغِنىٰ عنها؛ فإنه إن استغنىٰ عنها في حالٍ، احتاج إليها في حالٍ. وإن سئِمَها في وقتٍ، ارتاحَ إليها في وقتٍ. وإن شُغِلَ عنها في يومٍ، فَرَغَ لها في يوم. وأن لّا يُسرِعَ ويَعْجَل، فيندمَ ويَوْجَل، فربما عَجِل المرءُ علىٰ نفسه بإخراج كتابٍ عن يده، ثم رامه فتعذَّر عليه مَرامُه، وابتغىٰ إليه وُصولا، فلم يجد إليه سبيلا، فأتعَبَه ذلك وأنصَبَه، وأقلَقَه طويلًا وأرَّقه.

↩ **كالذي حُكي عن بعض العلماء**، قال: بِعتُ في بعض الأيام كتابًا ظننتُ أني لا أحتاجُ إليه، فلما كان ذاتَ يومٍ هَجَسَ في صدري شيءٌ كان في ذلك الكتاب، فطلبتُه في جميع كتبي فلم أجدْه، فاعتمدتُ أن أسألَ عنه عالِـمًا عند الصباح، فما زلتُ قائمًا علىٰ رِجْلي إلىٰ الصباح! قيل: فهلّا قعدتَ؟ قال: لطول أرقي، وشدّة قلقي!

↩ **وباع آخَرُ كتابًا** ظنّ أنه لا يَحتاج إليه، ثم إنه احتاجَ إليه، فالتمسَ نسخةً به فلم يجدْها بعاريّةٍ ولا ثمنٍ، وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلىٰ بلده، فشَخَصَ إليه، وسأله الإقالةَ وارتجاعَ الثمن منه، فأبىٰ عليه، فسأله إعارتَه لنسْخِ الكلمة منه، فلم يُجبْه! فانكفأ قافلًا، وآلىٰ علىٰ نفسه أن لّا يبيع كتابًا أبدًا.

↩ **وباع آخَرُ كتابًا** ظنّ أنه لا يحتاجُ إليه، ثم إنه احتاجَ إلىٰ كلمةٍ منه، فقَصَدَ صاحبَه، وسألَه أن يُكْتِبه تلك الكلمةَ، فقال: والله ما تَكتبُها إلّا بثمنِ الكتابِ كلِّه! فرَدَّ عليه ثمنَ الكتابِ، وكتبَ تلك الكلمة!

وقيل لآخَرَ: أَلَا تبيعُ من كتبك التي لا تَحتاجُ إليها؟ فقال: إن لّم أحتجْ إليها اليومَ احتجتُ إليها بعدَ اليوم!

واشترىٰ رجلٌ كتابًا فقيل له: اشتريتَ ما ليس من عِلمك؟ فقال: اشتريتُ ما ليس من عِلمي ليصير من عِلمي!

وقيل لآخَرَ: أَلَا تشتري كتبًا تكونُ عندَك؟ فقال: ما يمنعني من ذلك إلا أنني لا أعلم! فقيل: إنما يشتريها من لا يعلمُ حتىٰ يَعلمَ!

وكان آخَرُ يشتري كلَّ كتابٍ يراه، فقيل: له إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه، فقال: ربما احتجتُ إلىٰ ما لا أحتاج إليه!

وممّا يُعْزَىٰ إلىٰ السريِّ بن أحمد الكِنْدي:

لا تُخدَعَنَّ عن العُلوم فإنها ... سُرُجٌ يَزيدُ علىٰ الزمانِ ضِياؤُها

تُنسَىٰ القُرونُ فلا يُشِيدُ بذِكْرِها ... أَحَدٌ، ويُذكرُ دائبًا عُلماؤُها

فاحرصْ علىٰ جَمعِ العُلوم فإنها ... رِيُّ القُلوب من الصَّدىٰ وشِفاؤُها

وكان بعضُ القُضاة يشتري الكتبَ بالدَّيْن والقَرْض! فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أشتري شيئًا بَلَغَ بي هذا المبلغ؟! قيل: فإنك تُكثِرُ، فقال: علىٰ قَدر الصناعة تكونُ الآلةُ!»[(١)].

وقال ابنُ حزمٍ بعد أن أوصىٰ بإنفاقِ المال علىٰ العلم والاستكثار من الكُتُب: «لن يخلو كتابٌ من فائدةٍ وزيادةِ علمٍ يجدُها فيه إذا احتاج إليها،

---

(١) تقييد العلم (ص/ ١٣٦).

ولا سبيلَ إلىٰ حفظ المرء لجميع علمه الذي يختصُّ به. فإذْ لا سبيل إلىٰ ذلك؛ فالكُتُبُ نِعْمَ الخازنةُ له إذا طُلِبَ، ولولا الكتبُ لضاعتْ العلومُ ولم تُوجَدْ.

وهذا خطأٌ ممّن ذمَّ الإكثارَ منها، ولو أُخذَ برأْيه لَتَلِفَتْ العُلومُ، ولَجاذَبَهم الجهّالُ فيها وادّعَوْا ما شاءُوا. فلولا شهادةُ الكتب لاستوتْ دعوىٰ العالم والجاهل!»(١).



(١) رسالة مراتب العلوم - رسائل ابن حزم - (٤/ ٧٧).

الاسْتراحةُ من القِراءةِ تكونُ بالقِراءة!

وذلك كَمَنْ يَقرأُ في كتابٍ من كتب العلم العَسِرَة التي تحتاجُ لتركيزٍ ودِقّة تصوّرٍ، ككُتب: الفقه، والأصول، والنحو، والصَّرف، ونحوِها، فإذا ما تَعِبَ، أخذ كتابًا من كتب: الأدب، أو التاريخ، أو التراجم، فقرأ فيه؛ حتىٰ يَستَجِمَّ، ويُجدِّدَ نشاطَه[1].

وقد كان محمدُ بنُ الحسن الشيباني لا ينام الليلَ، وكان يُزيل نومَه بالماء ويقول: «إنّ النومَ من الحرارة»، وكان يضع عنده دفاترَ كثيرةً، فإذا ملَّ من نوعٍ نظر في آخَرَ، فلمّا سُئلَ عن ذلك قال: «العلمُ ثقيلٌ، فأنظر في هذا فإذا ثَقُلَ أخذتُ بآخَرَ»[2].

وكان القاضي أحمدُ بنُ عمر بن محمد المذحجيُّ الزبيديُّ الشهيرُ بالمزجَّد (ت ٩٣٠ هـ)، إذا سئم من القراءة والمطالعة استدعىٰ مقاماتِ الحريري، فيطالعُ فيها، وكان يسمّيها: (طَبَقَ الْحَلْوَىٰ)![3].

---

(١) **تنوير** = مِن الكتبِ الماتِعةِ التي تجمعُ بين الفائدةِ والاستجمامِ، معَ ما فيها من أفاكِيهَ كثيرةٍ ومضاحيكَ جَمّةٍ:
كتبُ: **الأحاديثِ الموضوعة**! وكتبُ: **الألقاب**! وكتبُ: **التصحيفات**! فإنّ في هذه الكتبِ من اللطائفِ والغرائبِ الشيءَ الكثيرَ.
وهذه الكتبُ مغفولٌ عنها – في هذه البَابَةِ تحديدًا – من قِبَل كثيرٍ من العلماءِ، فضلًا عن طلّابِ العلم!

(٢) **انظر**: مفتاح السعادة ومصباح السيادة: لطاشكبري زاده (١/ ٣٦)، وقيمة الزمن عند العلماء: لعبد الفتاح أبو غدّة (ص/ ١٩٠).

(٣) **انظر**: النور السافر عن أخبار القرن العاشر: للعيدروسي (ص/ ١٣٠).

⇦ وهذا أمرٌ طَبَعِيٌّ في الإنسان، أنْ يَكِلَّ ويَمَلَّ عندَ الأخذ علىٰ نمطٍ واحدٍ، كما قال ابنُ القيّم:

وتَخَلُّلُ الفَتَراتِ للعَزَمَاتِ أمْـــرٌ لازِمٌ لطبيعةِ الإنسانِ[١]

☜ وممّا يُؤْثَرُ عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قولُه: «أَجِمُّوا هذه القلوبَ، وابتغوا لها طرائفَ الحكمةِ؛ فإنها تَملُّ كما تَملُّ الأبدانُ».

وفي روايةٍ عنه: «إنّ هذه النفوسَ تملُّ، وهذه القلوبُ تَدْثُرُ، فابتغوا لها طرائفَ الحكم وملاهيها»[٢].

☜ كما يُؤثر عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يقول إذا أَفَاضَ مَن عِنْده في الحديث بعدَ القرآن والتفسير: «أَحْمِضُوا»[٣].

☜ وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ في قوله ﷺ لجابر: «فَهَلّا بِكْرًا تُلاعِبُها وتُلاعِبُكَ»: «هذا كأنه يتشاغل بمباحٍ، وتنفيسٍ، وجِمامٍ من الجِدّ، وتَعمُّلٍ لما يَتقوّىٰ به عَمَلُ النظر في العلم والعبادة، وقد رُوي عن بعض السلف أنه كان

---

(١) الكافية الشافية (ص/ ٨٣٦).

(٢) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: للزمخشري (١/ ٤).

(٣) قال ابنُ قتيبة: قولُه: «أَحْمِضُوا» هو من الحَمْض، والحَمْضُ ما مَلُح من النبْت. والعربُ تُلْقِي الابلَ في الخلَّة، وهو ماحَلا من النبْت. فإذا مَلَّته ألقتْها في الحَمْض.
وأراد ابنُ عباس، إذا مللتم من الحديث والفِقْه فَخُذُوا في الأَشْعَار وأخبار العَرَب لتروِّحوا بذلك قُلُوبَكُمْ. ونَحْوُه قولُ الزُّهْرِيّ: «هاتوا من أَشْعَاركُم؛ فإنّ الْأذنَ مَجَّاجةٌ، والنَّفسَ حَمِضَةٌ».
يُريد: أنها تَشْتَهي الشَّيْءَ بعدَ الشيء كما تَشْتَهي الإبلُ الحَمْضَ بعد الخَلَّة. غريب الحديث (٢/ ٣٦٦). وانظر: المراح في المزاح: للغزّي (ص/ ٦٩).

إذا أكثرَ النظرَ في مسائل الفقه قال: «أَحْمِضُوا»، ورُوي: «إنّ هذا الدينَ متينٌ، فأوغِلْ فيه برفقٍ؛ فإن المنبتّ لا أرضًا قطعَ، ولا ظَهْرًا أبقىٰ». وليس هذا اللعبُ كاللعبِ في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]»(١).

☜ وقال القاضي عياض في شرحِه حديثَ (أمّ زَرْع): «فيه - أيضًا - جوازُ الحديث عن الأمم الخالية، والأجيال الماضية، بمُلَح الأخبار، وطُرَف الحكايات؛ لتسلية النفس. وكذا ترجم عليه الترمذي في «شمائله»: «**باب ما جاء في كلام رسول الله ﷺ في السَّمَر**»(٢).

☜ وقال الرُّصافيُّ:

وإذا ما اشتغلتَ بالجِدِّ ساعا ... تٍ فهازِلْ سُوَيْعةً واسْتَجِمِّ
وتَرَفَّقْ إذا جَهِدْتَ فإنّ الرِّ ... فْقَ يُذْكِي الفؤادَ، والعُنْفُ يُعْمِي
ولقدْ يَبْلُغُ العَجُولُ مَدَاهُ ... بالتأنّي بُلوغَ خَضمٍ بقَضْمِ(٣)

⇦ ولذا فإنّ الجاحظَ لمّا رأىٰ أنه أثقلَ علىٰ قُرّاء كتابه «**الحيوان**» بما أورده فيه من الجِدِّ، أفردَ فيه فصلًا مطوَّلًا ذكر في ألوانًا من الطرائف والمضاحيك والأخبار والأشعار؛ يُجِمّهم به!(٤).

---

(١) الحُجّة للقُرّاء السبعة (٤/ ٤٠٦).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٤٧١).

(٣) ديوان الرصافي (ص/ ٥٢٨).

(٤) يقع فصلُ الإجمام هذا في (١٤٠) صفحةً! ابتدأه بقوله: «وإن كنَّا قد أمَلْلناك بالجِدِّ =

ومِثلُه أبو جعفرٍ النحّاسُ[(١)].

بل إنّ الزمخشريَّ ما ألّف كتابَه الكبيرَ «**ربيعَ الأبرار**» أجلَّ كتب الأدب - عندي -، إلّا من أجل إجمام قُرَّاء تفسيره «**الكشّاف**»![(٢)].

=

وبالاحتجاجاتِ الصحيحة والمرَوَّجة؛ لتكَثَّرَ الخواطرُ، وتُشْحَذَ العقولُ، فإنّا سننشِّطكَ ببعضِ البَطالات، وبذكرِ العللِ الظَّريفة، والاحتجاجاتِ الغريبة؛ فربَّ شِعرٍ يَبلُغُ بفَرْطِ غباوةِ صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حَشْدُ أحَرِّ النوادر وأجمَعِ المعاني....

إلىٰ أن قال: فإنْ كنتَ ممَّن يستعمِل الملالةَ، وتَعْجَل إليه السآمة، كان هذا البابُ تنشيطًا لقلْبك، وجَمامًا لقوَّتك....

وإن كنْتَ صاحبَ علمٍ وجِدٍّ، وكنت مُمرَّنًا موقَّحًا، وكنتَ إلفَ تفكيرٍ وتنقيرٍ، ودراسةِ كتُبٍ، وحِلفَ تبيُّنٍ، وكان ذلك عادةً لك لم يَضِرْكَ مكانُه من الكِتاب، وتَخَطِّيه إلىٰ ما هو أولىٰ بك.

وعلىٰ أنّي قد عزمتُ - واللّهُ الموفِّق - أنّي أوشِّح هذا الكتابَ وأفصِّلُ أبوابَه، بنوادِرَ من ضُروبِ الشِّعر، وضروبِ الأحاديث؛ ليخرج قارئُ هذا الكتاب من بابٍ إلىٰ باب، ومن شَكْلٍ إلىٰ شَكْل؛ فإنِّي رأيتُ الأسماعَ تملُّ الأصواتَ المطْرِبَةَ والأغاني الحسنةَ والأوتارَ الفَصيحةَ، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلاَّ في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلةَ.

وإذا كانت الأوائلُ قد سارتْ في صغارِ الكتب هذه السِّيرةَ، كان هذا التَّدبيرُ لِمَا طالَ وكثُر أصلَحَ، وما غايتُنا مِن ذلك كلِّه إلاَّ أن تَستَفيدُوا خيرًا.

وقال أبو الدَّرداء: إنِّي لأُجِمُّ نفسي ببَعْض الباطل، كراهةَ أنْ أحمِلَ عليها من الحق ما يُمِلُّها». الحيوان (٣/ ٥ - ٧).

(١) فقد قال في المرتبة السابعة من كتابه عمدة الكُتّاب (ص/ ٣٢٥): «لَقَّبنا هذه المرتبةَ بمرتبة الفهَاهَة، لِمَا قَدَّرْنا أنْ نذكرَ فيها ممّا يُعابُ علىٰ الكُتّاب ومَنْ لحقتْه الفهَاهَةُ، فيكونُ ذلك مُستجْلِبًا لنشاطِ القارئ وإصغاءِ المستمع، ولعلّ مَن يتصفّحُ هذا الكتابَ يقول: ما هذا مِن صِناعة الكُتّاب، فيَخرجَ إلىٰ الفهاهة! لأنّ معرفةَ كثيرٍ مما يَمُرُّ في هذا الباب يُستَحسَنُ للكاتب معرفتُه، ويُعَدُّ حِفظُه إيّاه من أدبه».

(٢) حيثُ قال في مقدِّمة ربيع الأبرار (١/ ٣): «وهذا كتابٌ قصدتُ به إجمامَ خواطر الناظرين

=

⇦ **وتختلفُ عوائدُ كلّ عصرٍ في نوعِ ما يُستجَمُّ به، فلكلّ عصرٍ إجمامُه واستراحتُه!**

فقد ذكر شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (ت ٧٢٨ هـ) عن علماء عصره أنهم كانوا يَتَلَهَّوْن في أوقات فراغهم بعلم الفرائض والحساب ونحوِ ذلك!!

☜ **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كثيرٌ من متأخِّري أصحابنا، يشتغلون وقتَ بطالتهم بعلم الفرائض، والحساب، والجبر والمقابلة، والهندسة، ونحو ذلك! لأنّ فيه تفريحًا للنفس، وهو علمٌ صحيحٌ لا يدخل فيه غلطٌ، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه **قال**: «إذا لَهَوْتُم فالْهُوا بالرمي، وإذا تحدّثتم فتحدّثوا بالفرائض»؛ فإن حسابَ الفرائض علمٌ معقولٌ مبنيٌّ علىٰ أصلٍ مشروعٍ، فتبقىٰ فيه رياضةُ العقل، وحِفظُ الشرع، ولكن ليس هو علمًا يُطلَبُ لذاته، ولا تَكمُل به النفسُ»[(١)].

=

في «**الكشاف عن حقائق التنزيل**»، وترويحَ قلوبِهم المتعَبة بإجالة الفِكْر في استخراج ودائع علمه وخباياه، والتنفيسَ عن أذهانهم المكدُودة باستيضاح غوامضه وخفاياه، وأن تكون مطالعتُه ترفيهًا لمن مَلّ، والنظرُ فيه إحماضًا لمن اختلّ.....».

(١) الردّ علىٰ المنطقيين (ص/ ١٣٦).

⮌ **وقد بيّن في موضع آخرَ** من الكتابِ نفسِه (ص/ ٢٥٥) أن المرادَ المسائلُ العويصةُ التي تُفتِّق الذِّهنَ وتُقوِّيه. **فقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النظرُ في العلوم الدقيقة يُفتِّق الذهنَ، ويُدرِّبه، ويُقوِّيه علىٰ العلم؛ فيصير مثل: كثرة الرمي بالنُّشَّاب (النبْل)، وركوب الخيل، تُعِينُ علىٰ قوة الرمي والركوب، وإن لم يكن ذلك وقتَ قتالٍ، وهذا مَقصِدٌ حسنٌ.

ولهذا كان كثيرٌ من علماء السنّة يَرغبُ في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة: كالجبر والمقابلة، وعويص الفرائض، والوصايا والدَّوْر؛ لشَحْذ الذهن؛ فإنه علمٌ صحيحٌ في نفسه.

ولهذا يُسمَّىٰ الرياضي؛ فإن لفظ الرياضة يستعمل في **ثلاثة أنواع**:

=

وجعلَ ابنُ فَرْحُون اليَعمُري المالكي (ت ٧٩٩هـ) إجمامَ النفس في حَلِّ الألغاز الفقهيّة!

فقال: «إنّ طلبَ العلم أشرفُ الاكتساب وأسماه، وطالبُه يحتاج إلىٰ قوةٍ وعزمٍ، وإجمامُ نفسه لابدّ له منه حتمًا. فقد قال علي بن أبي طالبٍ ﵁: «سَلُّوا النفسَ ساعةً؛ فإنها تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ».

ومِن أحسن ما أَجَمَّ به نفسَه محاضرةُ الطلاّب، بألغاز فروع الأصحاب؛ لأنها تُحِدُّ الأذهان، وتَفتحُ الجَنانَ، وتُفاضِلُ بين الأقران. والعملُ بها ثابتٌ في الصحيح، وهي في البخاريِّ نصٌّ صريح......[(١)].

وقد ألّف العلماءُ في ذلك تواليفَ عديدةً، وهذا النوعُ يُسمّيه الفقهاءُ الألغازَ، وأهلُ الفرائض يُسمّونَه الـمُعَمَّيات، والنحاةُ يُسمُّونَه الـمُعَمّىٰ، واللغويّونَ يُسمُّونَه الأحاجي.

ولم أقفْ للمالكية علىٰ تآليف من هذا النوع يُقتَفىٰ به ويُتّبَع، فقيّدتُ من ذلك ما تُستطرَفُ به المذاكرة، وتُستجلَىٰ به المحاضرة»[(٢)].

=

١- في رياضة الأبدان بالحركة والمشي كما يذكر ذلك الأطباءُ وغيرُهم.
٢- وفي رياضة النفوس بالأخلاق الحسنة المعتدلة والآداب المحمودة.
٣- وفي رياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة».

(١) ذكر المؤلِّفُ هنا حديثَ ابنِ عمر ﵄ المشهور، حينما سألهم رسولُ الله ﷺ عن النخلة. وهو في صحيح البخاري، في كتاب العلم: باب طرح الإمام المسألة علىٰ أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، ح (٦٢).
وجميعُ مَن ألّف في الألغاز والأحاجي يَستشهدُ به.

(٢) دُرّة الغوّاص في محاضرة الخواصّ (ص/ ٦٢-٦٥).

تكرارُ قراءةِ الكتابِ المقروءِ؛ أولىٰ من قراءةِ كتابٍ جديدٍ.

لأنَّ القارئَ لا يكاد يثبتُ في ذهنه من القراءة الأولىٰ للكتاب إلا معالمُ وأشياءُ يسيرةٌ، فإذا ما كَرَّ علىٰ الكتاب ثانيةً، وثالثةً، ورابعةً......؛ فإنّ الكتابَ يرسَخُ ويثبُتُ. لذا قالوا: «**التكرار، يُولِّدُ الاستقرار**».

وقد ثبت بالتجربة أنّ كلَّ قراءةٍ سيظهرُ للقارئِ فيها معانٍ جديدةٌ، كما تترسَّخُ لديه المعاني السابقةُ، قال المُزَنِيُّ: «قرأتُ «الرسالةَ»[1] خمسَ مائةِ مرة!! ما مِن مرةٍ إلّا واستفدتُ منها فائدةً جديدةً!».

وفي روايةٍ عنه أنه قال: «أنا أنظرُ في «**الرسالة**» مِن خمسينَ سنةً! ما أعلم أني نظرتُ فيها مرةً إلا واستفدتُ شيئًا لم أكنْ عرفتُه!»[2].

وقال الشيخُ محمدُ البشير الإبراهيمي عن كتاب «**الأغاني**» لأبي الفرج الأصفهاني: «لا تَسْألْني عن خصائصِه التي أثَّرتْ في نفسي وجَلَبَتْ قِيادي إليه، حتىٰ تركتْني أُجدِّدُ قراءتَه من أوَّله إلىٰ آخره في كلِّ عَقْدٍ من سِنِيِّ عُمْري، وكلَّما قرأتُه تجدَّدتْ آثارُه في نفسي، وتجاوبتْ أصداؤُه بين جوانبي، فبعث فيّ رُوحًا جديدةً! لا تَسْألْني عن ذلك؛ فكلُّ أديبٍ قرأه وكرّر قراءتَه وجد في نفسه من التأثُّر مثلَ ما أَجِدُ، أو فوقَ ما أَجِدُ، وتَجدَّدتْ عندَه صُورةٌ من روعةِ الأدب العربيِّ وجلالِه»[3].

---

(١) يعني كتابَ «**الرسالة**» للإمام الشافعي، أول مؤلَّفٍ في علم أُصول الفقه علىٰ الراجح.

(٢) المجموع شرح المهذب: للنووي (١/ ٩).

(٣) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ٣٧٤).

وقد بيّنتُ حالَ كتاب الأغاني ومرادَ الشيخ الإبراهيمي بكلامه هذا في تعليقي علىٰ مقالته في آخر الكتاب.

وقال الدكتور/ محمد رجب البيُّومي: «قد عرفتُ من التجربة أنَّ قراءةَ الكتاب الجيّد مرةً واحدةً لا تكفي، فلا بدّ من العودة إليه مرةً بعد مرةٍ، حتىٰ أستشفَّ كلَّ ما أستطيعُ امتصاصَه من خوافيه.

كما عرفتُ أنَّ القراءةَ المتصلةَ دون مُهلةٍ مما يَضيع معها الكثيرُ، والأفضلُ أنْ يقرأ الإنسانُ فصلًا واحدًا ثم يَطوي الكتابَ ليَخلُوَ إلىٰ نفسه مفكِّرًا فيما قرأ، محاولًا تلخيصَ أهمّ ما حصّله بينه وبين نفسه؛ وإذ ذاك يَنعم بجَنْي ما في الكتاب من ثمارٍ علىٰ مَهلٍ والتذاذٍ، وبهذه الطريقة تكون قراءةُ الكتاب الواحد من الكتب الجيدة، أفضلَ من قراءة عشرة كتب قراءةً طائرةً لا تميل إلىٰ التبصُّر، فإذا عُلم أن القارئَ الجديرَ بهذا الوصف قارئٌ وناقدٌ معًا، لأنه أثناء القراءة، يوافق ويخالف، ويُنكر ويَعرف، إذا أُعلم ذلك كانت العودةُ الثانيةُ إلىٰ الكتاب من ألزم الضرورات، هكذا أفعل، وبهذا أنصح!»[١].

وقد ذكر الأديبُ المِصريُّ عباس محمود العَقَّاد: فوائدَ كثيرةً لتكرار قراءة الكتاب الواحد عدَّةَ مرَّاتٍ[٢].

ومِن تبويبات الإمام البخاريّ في صحيحه[٣]: بَابُ مَنْ أَعَادَ الْحَدِيثَ ثَلَاثًا؛ لِيُفْهَمَ عَنْهُ.

---

(١) ظِلال من حياتي (ص/ ١٨٤).

(٢) انظرها في كتابه يوميات (٤/ ٦٢٢).

(٣) (١/ ٤٧).

وقد كان هذا دَيْدن العلماء قديمًا وحديثًا؛ فقد كانوا يقرأون الكتابَ الواحدَ عشراتِ المرّاتِ! وربّما مئاتِ المرّاتِ! بلْ بلغَ بعضُهُم الألفَ!![١].

لكنْ قد يَمُنُّ المنَّانُ علىٰ بعض الناس بذاكرةٍ واعيةٍ، بحيثُ يَنتقِشُ الكتابُ في ذِهنِه من أولِ مرةٍ، فلا يحتاجُ لمعاودة قراءةِ الكتاب مرةً أخرىٰ!

☜ **قال جمالُ الدّين السومري في أماليه:** «ومِن عجائب ما وقع في الْحِفْظ من أهل زماننا أنّ ابنَ تيمية كان يمرُّ بالكتاب مطالعةً مرّةً فينتقِشُ في ذهنه، وينقلُه في مصنَّفاته بلفظِه ومعناهُ!»[٢].

☜ **وذكروا في ترجمة** العلّامة الُّلغوي/ **ناصيف اليازجي**، أنه كان يحفظُ زبدةَ كلّ كتابٍ يقرأُه، فيرسَخُ في ذهنه فلا تذهبُ به الأيامُ! وقلّما طالع كتابًا واحتاج إلىٰ مطالعته مرةً ثانيةً![٣].



(١) ذكرتُ نماذجَ كثيرةً من هذا في كتابي «**الإبداع العلمي**» (ص/ ١١٩) الطبعة الثانية، نشر مكتبة دار المنهاج، فراجعْها فيه.

(٢) الدرر الكامنة: لابن حجر (١/ ١٧٨).

(٣) انظر مقدمة كتابي «**الجامع العزيز**».

العنايةُ التامَّةُ بمطالعة كتب السَّلَف.

فإنها الغِذاءُ والرَّوَاءُ، والهَواءُ والدَّواءُ؛ لأنها جمعتْ العلمَ الصحيحَ، والعقلَ السديدَ، والمنهجَ السليمَ، والنصحَ التامَّ. فرحم اللهُ أهلَها ورضيَ عنهم وأرضاهم.

قال ابنُ الجوزيّ في الحثّ علىٰ قراءة كتب السلف: «سبيلُ طالب الكمال في طلب العلم، الاطلاعُ علىٰ الكتب التي قد تخلّفت من المصنَّفات، فليُكثرْ من المطالعة؛ فإنه يرىٰ من علوم القوم، وعلوّ هِمَمِهِم ما يَشْحذُ خاطرَه، ويُحرّك عزيمتَه للجدّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذ بالله من سِيَر هؤلاء الذين نعاشرُهم! لا نرىٰ فيهم ذا همّةٍ عاليةٍ؛ فيَقتدي به المبتدئُ، ولا صاحبَ وَرَعٍ، فيستفيدُ منه الزاهدُ!

فاللهَ اللهَ، وعليكم بملاحظة سِيَر السلف، ومطالعةِ تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثارُ من مطالعة كتبهم رؤيةٌ لهم، كما قال:

فاتني أن أرىٰ الدِّيارَ بطَرْفي ... فلعلّي أرىٰ الدِّيارَ بسَمْعي!»[١].

وقال شيخُ الإسلام عن السلف: «هم أفضلُ من الخَلَف في كل فضيلةٍ؛ من علمٍ وعملٍ وإيمانٍ وعقلٍ ودينٍ وبيانٍ وعبادةٍ، وأنهم أولىٰ بالبيان لكلِّ مُشْكلٍ. هذا لا يَدفعُه إلا مَن كابرَ المعلومَ بالضرورة من دين الإسلام وأضلَّه اللهُ علىٰ علمٍ»[٢].

---

(١) صيد الخاطر (ص/ ٤٥٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٧).

وقال الشيخُ ابنُ عثيمين: «عليك بالأمهاتِ؛ كتبِ السلفِ، فإنها خيرٌ وأبركُ بكثيرٍ من كتبِ الخَلَفِ؛ لأنّ غالبَ كتب المتأخرين قليلةُ المعاني، كثيرةُ المباني، تقرأ صفحةً كاملةً يمكن أن تلخّصها بسطرٍ أو سطرين! لكنّ كتبَ السلف تجدُها هيّنةً، ليّنةً، سهلةً، رصينةً، لا تجد كلمةً واحدةً ليس لها معنىً»[(١)].



(١) العلم لابن عثيمين (ص/ ٦٩).

لطيفَة = قال الشيخ حمّاد الأنصاري رَحِمَهُ اللهُ: «جَمَعْنا مكتبةً عامةً بالرياض لطلبة العلم، وذلك أنا وبعضُ المشايخ، وسميّناها «مكتبة التيسير»، حيث إنه لم يكن يوجد أيُّ مكتبة علميّة عامّة ولا مكتبة تجاريّة، إنما توجد مكتبة قرطاسيّة لأحد الهنود، فقدّمنا نحن معشرَ الطلبة بالرياض للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ لتأسيس مكتبة عامّة، فوافق، وساهم كلُّ واحدٍ منّا لتأسيسها، **واشترطْنا أن لا يَدخل هذه المكتبةَ إلاّ طالبُ علمٍ! وأنه لا يُوضَعَ فيها إلا كُتُبُ السَّلَف!**». المجموع في ترجمة العلامة المحدّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (١/ ٤٠٢).

اِحذرْ كلَّ الحذرِ من كتبِ أهلِ الأهواءِ؛ فإنّها السُّمُّ الزُّعَافُ، والدَّاءُ الدَّوِيُّ!!

مثـلَ كُتـبِ الفلاسـفة والصـوفية والمعتزلـة والخـوارج والعَلْمـانيّين والعقلانيّين والملاحدةِ، وغيرِهم من أهلِ البدعِ والضَّلالِ.

قال أبو عثمان البَرذعي: «شهدتُ أبا زُرْعَةَ سُئل عن الحارثِ المحاسِبي، وكُتبِه؟

فقلتُ[١] للسائل: إيّاكَ وهذه الكُتب، هذه كُتبُ بدعٍ وضَلالاتٍ، عليك بالأثَر، فإنك تجدُ فيه ما يُغْنِي عن هذه الكُتب.

قيل له: في هذه الكُتب عِبرَةٌ.

قال: مَن لم يكن له في كتاب الله عِبرَةٌ، فليس له في هذه الكُتب عِبرَةٌ!

بَلَغَكُم أنّ مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمة المتقدمين صنَّفوا هذه الكُتبَ في الخطَرَات، والوساوس، وهذه الأشياء؟ هؤلاء قومٌ خالفوا أهلَ العلم فأَتَوْنَا مرةً بالحارث المحاسِبيّ، ومرةً بعبد الرحيم الدَّبِيليّ، ومرةً بحاتم الأصمّ، ومرةً بشقيق البَلْخيّ.

ثم قال: ما أسرعَ الناسَ إلىٰ البدع!»[٢].

---

(١) كذا في المصدر، ولعلّ الصواب: فقال. وهي كذلك في تاريخ بغداد (٨/ ٢١١)، وتاريخ الإسلام (١٨/ ٢٠٩)، وسير أعلام النبلاء (١٢/ ١١٢)، والآداب الشرعية (٢/ ٨٢).

(٢) الضعفاء لأبي زرعة الرازي وأجوبته علىٰ أسئلة البرذعي (٢/ ٨١٧).

قال مقيِّدُه عفا اللهُ عنه: انظر إلىٰ كلامه هذا في الحارث المحاسبي، مع أنه من قُدَماءِ المتصوِّفةِ الذين يقالُ لهم: الزُّهّادُ! فما سَتراه يقولُ عن الصوفيّة الذين جاؤا بعدَ ذلك، =

☜ وقال ابنُ قدامة: «مِن السنّةِ هِجْرانُ أهلِ البدعِ ومباينتُهم، وتركُ الجِدال والخصومات في الدِّين، وتركُ النظرِ في كتب المبتدعة والإصغاءِ إلىٰ كلامهم، وكلُّ محدَثَةٍ بدعةٌ، وكلُّ مُتَسَمٍّ بغير الإسلام مبتدعٌ؛ كالرافضة، والجهمية، والخوارج، والقَدَرية، والمرجئة، والمعتزلة، والكرّامية، والكُلّابية، ونظائرِهم، فهذه فِرقُ الضلالِ وطوائفُ البدعِ، أعاذنا اللهُ منها»(١).

☜ وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «كُرِهَ لمنْ لا يكون له نقدٌ وتمييزٌ، النظرُ في الكتب التي يكثرُ فيها الكذبُ في الرواية، والضلالُ في الآراء، ككتب أهل البدع.

وكُرِهَ تَلقِّي العلم من القُصَّاص وأمثالِهم الذين يَكثُر الكذبُ في كلامهم، وإن كانوا يقولون صِدْقًا كثيرًا»(٢).

☜ وجاء في «الدُرَر السنية في الأجوبة النجدية»(٣): «ولْيحذَرْ طالبُ الحق من كتب أهل البدع، كالأشاعرة، والمعتزلة، ونحوهم، فإن فيها من التشكيك، والإيهام، ومخالفة نصوص الكتاب والسنة ما أخرج كثيرًا من الناس عن الصراط المستقيم، نعوذ بالله من الخِذْلان».

☜ وقال العلّامةُ ابنُ عثيمين: «الكتبُ تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

=

كابنِ الفارضِ وابنِ عربي وابنِ سبعين، القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود! فتبًّا لهم ولمن يَعتقِدُهم من مُتصوِّفة العَصْر؟!!

(١) لمعة الاعتقاد (ص/ ٤٢).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٦٨).

(٣) (٣/ ٣٥٧).

◈ **القسم الأول**: كتبُ خيرٍ.

◈ **القسم الثاني**: كتبُ شَرٍّ.

◈ **القسم الثالث**: كتبٌ لا خيرَ ولا شرَّ.

فاحرصْ أن تكون مكتبتُك خاليةً من الكتب التي ليس فيها خيرٌ، أو التي فيها شرٌّ.

⮌ **وهناك كتبٌ** يقال: إنها كتبُ أدبٍ، لكنها تقطع الوقتَ وتقتُلُه في غير فائدةٍ.

⮌ **وهناك كتبٌ** ضارَّةٌ ذاتُ أفكارٍ معيّنةٍ وذاتُ منهجٍ معيّنٍ، فهذه أيضًا لا تَدخلُ المكتبةَ، سواءٌ كان ذلك في المنهج أو كان ذلك في العقيدة، مثلُ: كتبِ المبتدعةِ التي تضرُّ في العقيدة، والكتبِ الثَّوْريّةِ التي تضرُّ بالمنهج.

وعمومًا كلُّ كتبٍ تَضرُّ فلا تَدْخُل مكتبتَكَ؛ **لأنّ الكتبَ غذاءٌ للروح، كالطعام والشراب للبدن**، فإذا تغذَّيتَ بمثل هذه الكتب، صار عليك ضررٌ عظيمٌ، واتجهتَ اتجاهًا مخالفًا لمنهج طالب العلم الصحيح»(١).



(١) مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٢٦/ ٣٣٩ - ٣٤٠).

ينبغي التفريقُ في مسألة قراءة كتب أهل الضلال (عندَ الحاجةِ لذلك) بين العالِـم والجاهِل.

فالجاهلُ الذي لا يُميِّزُ الحقَّ من الباطلِ، لا يجوزُ له النظرُ في تلك الكتب البتّة؛ لأنّ الأمورَ قد تلتبسُ عليه فيَضِلّ؛ والقلوبُ ضعيفةٌ والشُّبَهُ خَطّافةٌ(١).

قال ابنُ الأزرق الغِرناطي عن كتاب «**قُوت القلوب**» لأبي طالب

---

(١) كان كبارُ علماء السلف يخافون علىٰ أنفسهم من سماع شبهاتِ المبتدعة؛ لئلّا يقع في نفوسهم شيءٌ! فما ظنُّكَ بمَنْ دونهم؟!

- **قال أيوبُ السَّختيانيُّ:** «دخل علىٰ محمد بن سيرين يومًا رجلٌ فقال: يا أبا بكر، أَقرأُ عليك آيةً من كتاب الله لا أزيدُ علىٰ أنْ أقرأها ثم أخرجُ. فوضع إصبعيه في أذنيه ثم قال: أُحَرِّجُ عليك إنْ كنتَ مُسْلمًا لما خرجتَ من بيتي. قال: فقال: يا أبا بكر، إني لا أزيدُ علىٰ أنْ أقرأَ ثم أخرج، قال: فقام بإزاره يشدُّه عليه، وتهيّأ للقيام، فأقبلْنا علىٰ الرجل فقلنا: قد حَرَّجَ عليك إلّا خرجتَ، أفيحلُّ لك أنْ تُخرجَ رجلًا من بيته؟ قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر، ما عليك لو قرأ آيةً ثم خرجَ؟ قال: إني والله لو ظننتُ أن قلبي يثبُتُ علىٰ ما هو عليه ما باليتُ أنْ يقرأَ، ولكني خِفْتُ أن يُلقيَ في قلبي شيئًا أجهدُ أن أُخرجه من قلبي فلا أستطيعُ». البدع والنهي عنها: لابن وضاح (ص/ ٦٠).
- **وقال الأوزاعيُّ:** «لا تُمكِّنوا صاحبَ بدعةٍ من جدلٍ؛ فيورثَ قلوبَكم من فتنته ارتيابًا» المصدر نفسه.
- **وقال سفيانُ الثوريُّ:** «مَن سمعَ ببدعةٍ، فلا يَحْكِها لجلسائه، لا يُلْقِها في قلوبهم».

قال الذهبيُّ مُعقِّبًا: «أكثرُ أئمة السلف علىٰ هذا التحذير، يَرونَ أنّ القلوبَ ضعيفةٌ، والشُّبَهَ خَطّافةٌ». سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦١).

والآثار عنهم في ذلك كثيرةٌ.

ولذا قال بعضُ الحُكماء: لا تَقرأْ كتبَ الباطل حتىٰ تتمكّن من الحقِّ؛ لا لقوةِ الباطلِ ولكنْ لضعفكَ أنتَ!

المكّي: «قال فيه الأستاذُ أبو إسحاق الشاطبي فيما وقفتُ عليه من «أجوبته»: «له آراءُ خالف فيها العلماءَ حتىٰ إنه ربما خالف الإجماعَ في بعض المواضع، لكنْ له كلامٌ حسنٌ في الوعظ، والتذكير، والتحريض علىٰ طلب الآخرة، فلذلك إذا احتاج الطلبةُ إلىٰ كتابه «**قوت القلوب**» طالعوه متحرِّزين، وأما العوامُّ فلا يَحِلُّ لهم مطالعتُه البتَّة».

☜ **قلتُ:** لقولهم: كلُّ كلامٍ، منه مأخوذٌ أو متروكٌ، إلّا ما كان من كلام النبيِّ ﷺ. وثبت هذا عن مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فالطلبةُ يعرفون ما يُؤخذُ منه، وما يُتركُ، والعوامُّ لا معرفةَ لهم بذلك، فيتعيَّنُ عليهم تركُ النظرِ في الجميع، لالْتباس الضارِّ بالنافع»[(١)].

☜ **وقال السِّجْزِيُّ:** «ولْيحذرْ تصانيفَ مَنْ تغيَّرَ حالُهم؛ فإنَّ فيها العقاربَ، وربما تعذَّرَ التِّرْياقُ!»[(٢)].

☜ **وقال الشيخُ محمدُ رشيد رضا** عن قراءة كتب المِلَل: «ينبغي منعُ التلامذة والعوامّ من قراءة هذه الكتب؛ لئلّا تشوِّشَ عليهم عقائدَهم وأحكامَ دينِهم، فيكونوا كالغُراب الذي حاول أن يتعلَّمَ مِشْيَةَ الطاووس، فنسيَ مِشْيَتَه ولم يتعلمْ مِشْيَةَ الحَجَل!»[(٣)].

⇦ **أمّا العالِـمُ المدرِكُ المميِّزُ،** فهذا لا بأس أنْ يُطالِعَ تلك الكتبَ لمصلحةٍ تقتضي ذلك، كنقدِها والردِّ عليها، أو تحذيرِ الناسِ منها، أو ما أشبه ذلك.

---

(١) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام (١/ ١٢٧).

(٢) رسالة السِّجزي إلىٰ أهل زبيد (ص/ ٢٣٤).

(٣) مجلة المنار (٧/ ٢٥٨).

قال الإمامُ الترمذيُّ: «قد روىٰ غيرُ واحدٍ من الأئمة عن الضعفاء وبيّنوا أحوالَهم للناس.

حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن منذر الباهلي، أخبرنا يعلىٰ بن عبيدٍ، قال: **قال لنا سفيانُ الثوريُّ**: اتّقوا الكلبيَّ. فقيل له: إنك تَروي عنه! قال: أنا أعرفُ صِدْقَه من كَذِبِه»[1].

وقال السيوطيُّ: «اعلموا - يرحمكم اللهُ - أنّ من العلم كهيئة الدواء. ومن الآراء كهيئة الخَلاءِ! لا تُذكرُ إلا عند داعية الضرورة»[2].

⇦ وقد تقدَّم معنا قبلَ قليلٍ قولُ شيخ الإسلام ابن تيمية: «كُرِهَ لمنْ لا يكون له نقدٌ وتمييزٌ، النظرُ في الكتب التي يكثرُ فيها الكذبُ في الرواية، والضلالُ في الآراء، ككتب أهل البدع».



(١) سنن الترمذي (٦/ ٢٣٧) رقم (٤٠٥٧).
وانظر الكامل لابن عدي (٧/ ٢٧٥)، والمجروحين لابن حبان (٢/ ٢٥٦).
(٢) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة (ص/ ٥).

لـيس بالضـرورة أنْ يُقـرأَ الكتـابُ مـن كتـب الثقافـة العامّـة - ككتبِ الأدب، والمذكّراتِ، والرحلات، والمقالاتِ، والـمَعْلَمات، ونحوها - كاملًا.

بل لو انتقىٰ القارئُ منه ما يحتاجُه من المباحثِ والمطالبِ التي يرىٰ أهميّتَها بالنسبة له، كان ذلك حسنًا.

فلو أنه اختار من مكتبته خمسةً أو ستةً من الكُتُب مثلًا، فتصفَّحَ فهارسَها، ثم قرأ من كلّ واحدٍ منها عدّةَ مباحث، لتحقّقتْ له المتعةُ والفائدةُ.

وهذا يتأكّدُ في حقِّ المشتغلين بالتأليف والتصنيف أكثرَ من غيرهم؛ إذ العمرُ قصيرٌ، والكتبُ عَدَدُ الرمل والحصىٰ!



العنايةُ الفائقةُ باقتناء وقراءة كتب معاجم الفنون.

إذْ ما مِن علمٍ ولا فنٍّ إلّا وقد وَضَع فيه أصحابُه - غالبًا - مُعْجمًا يَجمعُ مُصطلحاتِه وموادَّه بشكل مُركَّزٍ مُكثَّفٍ.

وهذه المعاجمُ تَسُدُّ مَسَدَّ سائر الكتب في الفنّ غالبًا، ولا يَسُدُّ غيرُها مَسَدَّها.

بلْ لوْ أنّ زاعمًا زَعَمَ أنها تكفي المطَالِعَ في الفنّ؛ لما أبعد النَّجْعَةَ! ولو أقسمَ علىٰ ذلك لما حنّثْتُه!

ومِن مزايا هذه المعاجم:

١- أنها تَجمع جميعَ مصطلحاتِ وجُزئيَّاتِ الفنِّ غالبًا.

٢- أنها تُبرزُ مسائلَ ومصطلحاتٍ كثيرةً تُوجد في غير مظانّها، ربّما لا يهتدي إليها حتىٰ المتخصِّصون في الفنّ!

٣- أنَّ عبارتَها سهلةٌ واضحةٌ.

٤- أنّ معلوماتِها مركّزَةٌ مُكَثَّفَةٌ، بل ربما لُخّصتْ في المادة الواحدة اليسيرة عشراتُ الصفحاتِ!

٥- أنها تَذكُرُ التعريفاتِ والأقوالَ الراجحةَ في الفنّ نفسِه.

٦- أنَّها مرتَّبةٌ - غالبًا - علىٰ الترتيب الألفبائي؛ ممّا يسهّلُ الوصولَ للمعلومة.

ومن هذه المعاجم:

- معجمُ علوم القرآن: لإبراهيم بن محمد الجرمي.

- **معجمُ مصطلحات علم القراءات القرآنية وما يتعلق به**: لعبد العلي المسئول.

- **معجمُ علوم الحديث النبوي**: لعبد الرحمن الخَميسي.

- **معجمُ لغة الفقهاء**: لمحمد روّاس قلعه جي، وحامد صادق قنيبي.

- **القاموسُ الفقهيُّ لغةً واصطلاحًا**: لسعدي أبو حبيب.

- **معجمُ مصطلحات أصول الفقه**: لقطب مصطفىٰ سانو.

- **مُعْجمُ القواعد العربية في النَّحو والتصريف**: لعبد الغني الدّقَر.

- **مُعْجمُ البلاغة العربية**: لبدوي طبَانة.

- **المُعْجمُ الأدبيُّ**: لجَبُّور عبد النور.

وغيرُها.



العنايةُ بكتب الـمَعْلَمَات (الموسوعات)[١].

وهي كتبٌ عظيمةُ النفع جدًّا، تتداخلُ فوائدُها مع فوائد كتب معاجم الفنون، وكلٌّ منهما يُكمِّلُ الآخَر.

وتنقسم هذه الموسوعاتُ إلىٰ قسمين:

١/ موسوعاتٌ متخصِّصَةٌ في لونٍ معيّنٍ من العلوم والمعارف.

ومن أهمّ هذه الموسوعات:

- «موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة»: من إصدار الجمعيّة العلميّة السعوديّة لعلوم العقيدة، وتقع في ستة مجلّداتٍ فاخرةٍ.

وقد قام بإعدادها مجموعةٌ من الباحثين والمختصِّين في العقيدة. ورُتّبتْ حسب الترتيب الألفبائي؛ تسهيلًا للوصول للمعلومة بأسرع وقت.

وهي أشملُ وأدقُّ موسوعةٍ ظهرتْ حتىٰ الآن في عقيدة أهل السنة والجماعة.

فجزىٰ الله القائمين علىٰ إعدادها ومراجعتها خيرَ الجزاء؛ فقد سدّتْ فراغًا كبيرًا في المكتبة الإسلامية، ولله الحمدُ.

- «الموسوعةُ الميسّرةُ في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: من إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

وهي موسوعةٌ نفيسةٌ، لخّص فيها القائمون عليها مئاتِ الكتب والمقالات، التي كُتبتْ عن الأديان والمذاهب والأحزاب، القديمةِ منها والمعاصرةِ.

---

(١) تقدّم الكلامُ عن هذه التسمية.

◆ «الموسوعة الفقهيّة الميسّرة»: لمحمد روّاس قلعه جي. وتقع في مجلّدين كبيرين.

◆ «الموسوعة الفقهية الكويتية»: الصادرة عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، وتقع في (٤٥) مجلّدة من الحجم الكبير!

وهو عملٌ ضخمٌ جبّار، انتفع به العلماءُ والباحثون كثيرًا، فجزىٰ اللهُ القائمين عليها خيرَ الجزاء.

◆ «موسوعة علوم الحديث وفنونه»: للبحّاثة سيّد عبد الماجد الغَوْري.

وهي موسوعة نافعةٌ دقيقةٌ، تقع في ثلاثةِ مجلداتٍ كبارٍ.

◆ «نَضْرةُ النَّعِيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ»: إعدادُ مجموعة من المختصِّين.

وهي موسوعةٌ قيِّمةٌ تقع في (١٢) مجلّدًا من الحجم الكبير. حصل بسببها نفعٌ عظيمٌ؛ حيثُ حُشِدَ فيها نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة وأقوال العلماء وغير ذلك، في مكارمِ الأخلاقِ ومساوئِها.

وقد ساهمتْ مساهمةً عظيمةً في مساعدة المحاضرين، والخطباء، والوُعّاظ في الإعداد والتحضير.

٢/ موسوعاتٌ عامةٌ في شتّىٰ المعارف.

وهي كثيرةٌ، ومِن أشهرِها:

◆ «الموسوعة العربية الميسّرة»: لمجموعة من الباحثين، وتقع في مجلّدين ضخمين، لكنّها صدرتْ قديمًا؛ ولم تُحدَّثْ معلوماتُها - حَسْبَ

علمي - حتىٰ الآن، كما أنّ عليها ملاحظاتٍ كثيرةً[١].

◆ «دائرة معارف القرن العشرين»: لمحمد فريد وجدي.

وهي موسوعةٌ ضخمةٌ تقع في عشرةِ مجلداتٍ كبارٍ، وفيها فوائدُ ولطائفُ، لكنّها صدرتْ قديمًا كسابقتها، وبعضُ معلوماتها قد تجاوزها الزمنُ! وفيها أغلاطٌ جَمَّةٌ[٢].

---

(١) وقد بيّن تلك الملاحظاتِ طائفةٌ من العلماء والباحثين، منهم:

◆ **الأمير مصطفىٰ الشهابي**، وقد نُشر بحثُه في «مجلة مجمع اللغة العربية» بدمشق، تشرين الأول ١٩٦٦ م.

◆ **الأستاذ حمد الجاسر**، وقد نُشر بحثُه في «مجلة العرب»، رمضان ١٣٨٦ هـ.

◆ **الدكتور علي جواد الطاهر**، حيثُ نَشَرَ سِتَّ حلقاتٍ في «مجلة المجمع العلمي العربي» بدمشق، نيسان ١٩٦٧ - ١٩٦٩ م. ثم جَمَعَها بعد ذلك في كتابٍ سمّاه: «ملاحظات علىٰ الموسوعة العربية الميسّرة»، طبعتْه دارُ الرائد العربي ببيروت، وصدرتْ طبعتُه الأولىٰ عام ١٩٧٠ م.

◆ **الدكتور إبراهيم عوض**، في كتابٍ سمّاه: «نظراتٌ إسلاميّة في الموسوعة العربية الميسّرة»، طبعتْه مكتبة السوادي بجدّة، وصدر عام ١٤١٥هـ.

(٢) وقد نقَدَهَا نقدًا لاذِعًا الشيخُ محمد رشيد رضا في مقالٍ نشره في مجلته المنار (٣٣/ ٤٧٤) ومـمّا جاء فيه قولُه: «رُوي أنّ أحمد باشا تيمور المؤرخ الأديب، واللغوي المشهور، جمع من الأغلاط التاريخية في هذه الدائرة جزءًا كبيرًا. وسُئل عنه أحدُ علماء الأطباء المشهورين فقال: إنَّ ما رآه فيه من المسائل الطبية كثيرُ الغلط، ونقول نحن: إنَّ ما فيه من الغلط والخطأ في العلوم الدينية مِن نقْلِه وآرائِه لعله أكثرُ من غيره.......

وجملةُ القول أن هذه الدائرة لا يُوثَقُ بها ولا يُعتَمَدُ عليها، ولكنها راجتْ عند جمهور الناس علىٰ قصورها وقلة مادتها؛ لشدّة الحاجة إلىٰ هذه المعاجم. حتىٰ إن وزارة المعارف أخذتْ منها نسخًا لمكتباتها؛ لعدم وجود معاجم علمية تامة باللغة العربية غيرِها، وإن كان ينقصها موادُّ كثيرةٌ ضروريةٌ في كل مقصدٍ وموضوعٍ من موادّها، وهذا محلُّ الشاهد».

◆ «الموسوعةُ العربيةُ العالمية»: وهي عملٌ موسوعيٌّ تعليميٌّ ثقافيٌّ ضخمٌ؛ إذ تُعتبرُ أكبرَ وأجمعَ وأدقَّ الموسوعات العربية الثقافيّة علىٰ الإطلاق؛ حيثُ شارك في إنجازها أكثرُ من ألف عالمٍ، ومؤلِّفٍ، ومحرِّرٍ، ومُراجِعٍ عِلميٍّ ولغويٍّ، ومستشارٍ، ومؤسسةٍ، من جميع البلاد العربية!

وقد تُرجِم بعضُ أجزائِها عن النسخة الدوليّة من (دائرة المعارف العالَمِيَة World Book International) مع تنقيحها لتتواءَمَ مع الثقافة الإسلامية والعربية.

⮌ وتقع الموسوعةُ في ٣٠ مجلّدًا فاخرًا، تحتوي علىٰ (١٧) ألف صفحة! وعددُ مقالاتها يقارب (٢٤٠٠٠) مقالةً! ويوجد بها (١٢) ألف صورة![1] و(٢٥٠٠) خريطة! و(٤٠٠٠) إيضاح! و(١٠٠٠) جدول إحصائي وزمني![2].

وقد نُشرتْ بنسختين: ورقيّةٍ، وإلكترونيّةٍ.

☜ وهذه الموسوعة يَصدُق عليها قولُ القائل:

هـذا كتـابٌ قـد أتـىٰ في عَصْـرِنا بمعـارفٍ مثـلَ البِـحار الزَّاخـرةْ
عَمَّـت فوائـدُه فكـان بـه الغِنـىٰ إذْ كُـلُّ شـيءٍ صـارَ ضِـمنَ الـدَّائرةْ

وهي مرتَّبةٌ حسبَ الحروف الهجائية.

---

(١) لكنّ بعضَ الصُّوَر التي فيها عليها ملاحظاتٌ شرعيةٌ؛ لكونها مأخوذةً من **(دائرة المعارف العالمية)** كما هي!!

(٢) راجعْ (ويكيبيديا) الموسوعة الحرّة.

ينبغي للحريصين على المعارف الشرعيّة عامةً وعلى طلّاب العلم خاصةً أنْ يعتنوا كثيرًا بكتب الفتاوى، سواءٌ للعلماء المتقدِّمين، أو المتأخِّرين، أو المعاصِرين.

وذلك لما تشتمل عليه من فوائدَ كثيرةٍ، منها:

أنها تحتوي على دقائق المسائل ولطائف الاستنباطات.

كما تتضمّنُ كثيرًا من أحكام النوازل التي لا تكادُ توجدُ في كتابٍ.

كما أنها تُساهم مساهمةً فاعلةً في سَدِّ الثغرات في كتب المسائل.

كما أنها تدرِّبُ الطالبَ على دِقّة الاستنباط، وعلى فنّ بناء المسائل بعضها على بعضٍ.

وهي أيضًا ميزانٌ دقيقٌ لتعريف الطالب مرتبتَه من العلم الشرعيّ؛ ذلك لأنّ طالبَ العلم ينبغي أنْ يختبرَ علمَه بالإجابة على السؤال قبلَ قراءة جواب المفتي، فإنْ وافقَ المفتي في الجواب لكنْ زاد عليه المفتي، فهذا جيدٌ لتحصيل الزيادة. وإنْ وافقَ هو المفتي وزاد عليه، فلْيشكرِ اللهَ على هذه النعمة، ويسأله المزيدَ من فضله. وإنْ أخطأَ في الجواب فعليه أنْ يُراجعَ نفسَه، ويجدّ ويجتهدَ في تمتينِ علمه.

كذلك فإنّ كتبَ الفتاوى تُعتبرُ مِرآةً لعصر المفتي وأحوال الناس العلمية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية... في ذلك الوقت، وهذا ممّا يَغفُلُ عنه كثيرٌ من الدارسين والباحثين.

اِقصِدْ إلىٰ ما يُفيدُكَ ويُرقِّيك وتستطيعُ فهمَه واستيعابَه من الكتب.

بغضّ النظر عن كونه معاصِرًا أو قديمًا؛ إذْ الهدفُ هو اكتسابُ العلم والمعرفة من أقرب طريقٍ.

فلا يُمدَحُ القديمُ لِقِدَمِهِ، ولا يُذمُّ المعاصِرُ لِجِدَّته، وإنما المعيارُ هو تحصيلُ الفوائد وفهمُ المسائل، دون التفاتٍ للوسائل.

قال الدكتور عياض بن نامي السلمي: «ما يتخوّف منه بعض الغيورين من ابتعاد الناس عن كتب التراث وجهلهم بلغتها وأسلوبها إنْ هم اكتفوا بتلك المؤلفات الحديثة، لا أرىٰ له ما يؤيدُه من النقل ولا من العقل.

فإنّ النقل إنما جاء بالأمر بالتفقّه في الدين ومعرفة حُكم الله جَلَّ وَعَلَا بالطريق الصحيح والعمل به: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]، «**رحم اللهُ امرًا سمع مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعها**»، ولم يتعبدْنا اللهُ جَلَّ وَعَلَا بقراءة كتابٍ غيرِ كتابِه، ولا بحفظ كلامٍ سوىٰ كلامِه، ولم يتعبدْنا اللهُ بالاجتهاد في فهم مُعَمَّيات المختصرات، ولا بالاجتهاد في منطوق كلام أحدٍ من خلقه ومفهومه، إلّا كلامُ رسوله ﷺ الذي هو حُجّةٌ يجب تأمُّلُها والنظرُ فيها، وفقَ ما تقرّر من قواعد الفهم والاستدلال.

وأما العقل فإنه يقتضي ضرورةَ البحث عن الحق بأيسر وسيلة وأقربها، وأن لّا يُضيعَ الإنسانُ عمرَه في سلوك الدروب المتعرّجة، مع تمكّنه من الوصول إلىٰ الغاية بالطريق المستقيم.

وليس معنىٰ هذا الكلام الدعوة إلىٰ ترك كتب المتقدّمين، والاكتفاء عنها بكتب المتأخّرين، وإنما المقصودُ أن لّا يَظنّ من لم يُسعفْه ذهنُه بإدراك كتب المتقدّمين، أنّ الطريقَ أمامَه مُوصَدَةٌ، فيرضىٰ بمرتبة التقليد! بل عليه أن يعرف ممّا كتبه الـمُحْدَثُون ما يُمكّنه من الاختيار والترجيح، ويُعينه علىٰ معرفة القول الباطل من الصحيح»[(١)].

⇦ **فينبغي أن يبدأ القارئُ** أولًا بقراءة الكتب المعاصرة في الفنّ؛ لسهولتها ويُسرها في لغتها وأسلوبها وطريقة عَرْضها، فإذا ما فهم المسائلَ جيّدًا وتصوّرَها حقَّ التصوّر، فلا بأسَ بعد ذاك أن ينطلقَ إلىٰ القراءة في المصادر الأصول غيرَ هيّابٍ ولا وَجِل.



(١) أصول الفقه الذي لا يَسَعُ الفقيهَ جَهلُهُ (ص/ ٧).

الاهتمامُ باقتناءِ الكُتُبِ الأُمَّاتِ(١) ومصادرِ الفُنونِ الأصيلة.

فلا ينبغي الاستكثارُ من الـمُلَخَّصَات والكُتيِّبات؛ فإنَّها قليلةُ الجدوىٰ، نَزْرَةُ الفائدة(٢).

ذكر العُتْبِيُّ كتابًا لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه!

فقال ابنُ الجهم: لكنِّي ما رغّبني فيه إلاّ الذي زهّدك فيه! وما قرأتُ قطُّ كتابًا كبيرًا فأخْلاني من فائدةٍ، وما أُحصِي كم قرأتُ من صِغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلتُ!(٣).

وقال ابنُ الجهم: «إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدْتُه ورجوتُ منه الفائدةَ ورأيتُ ذلك فيه، فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقيَ من ورقِهِ مخافَةَ استنفاده وانقطاعِ المادَّة من قَلْبِه، وإن كان المصحفُ (أي الكتاب)

---

(١) فائدةٌ = الْأُمّ فِي كَلَام الْعَرَب أصلُ كلِّ شَيْءٍ. ومذهبُ بعضِ اللُّغويين أنها تُجمع إذا كانت لما لا يعقل أو من غير الآدميّات: أُمَّات بِغَيْر هَاء، وَأما بَنَاتُ آدم فهنّ أمَّهاتٌ، وَمِنْه قولُ الشَّاعِر:

لقد آليتُ أَغْدِرُ فِي جَداعِ ... وإنْ مُنِّيتُ أُمّاتِ الرِّباعِ

وقد جُمع بين اللغتين في قول القائل:

إذا الأُمَّهاتُ قَبَحْنَ الوُجُوهَ ... فَرَجْتَ الظَّلامَ بأُمّاتِكا

انظر: العين: للخليل (٨/ ٤٣٤)، وتهذيب اللغة: للأزهري (٦/ ٢٥١)، والصحاح: للجوهري (٥/ ١٨٦٣)، والقاموس المحيط: للفيروز آبادي (ص/ ١٠٧٦).

(٢) كما أنّ الكُتيّبات وإنْ كانتْ زهيدةَ الثمن، فإنها سريعةُ التلَف، عُرْضةٌ للضياع، عَسِرةُ الترتيب في خِزانة الكتب (يَعرفُ ذلك أصحابُ الخزائن!).

(٣) الحيوان: للجاحظ (١/ ٥٣).

عظيمَ الحَجْم كثيرَ الورق كثيرَ العدد فقد تَمَّ عيشي وكَمُلَ سروري!»[(١)].

☜ وقال ابنُ الجوزي: «كانت هِمَمُ القُدَماء من العلماء عاليةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم، التي هي زُبدةُ أعمارهم؛ إلّا أن أكثرَ تصانيفهم دَثَرَتْ؛ لأنّ هِمَمَ الطلاب ضَعُفَتْ، فصاروا يَطلبون المختصراتِ، ولا يَنشطون للمطوَّلاتِ، ثم اقتصروا علىٰ ما يَدرسون به من بعضها، فدَثَرَتْ الكتبُ، ولم تُنسَخْ!»[(٢)].

⇦ اللهمّ إلّا إذا كانت الكُتيِّباتُ ذاتَ موضوعٍ طَريفٍ لم يُسبَقْ أنْ بُحِثَ، أو جَمَعتْ أشياءَ مُتفرِّقةً، أو اشتملتْ علىٰ مقصدٍ من مقاصد التأليف التي لا يُؤلِّفُ عاقلٌ إلا فيها[(٣)] – فإنه يحسُنُ اقتناؤها حينئذٍ[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) صيد الخاطر (ص/ ٤٥٣).

(٣) ذكرتُها بالتفصيل في الطبعة الثانية من كتابي «**الإبداع العلمي**» (ص/ ٢٩) نشر مكتبة دار المنهاج، فراجعْها ثَمّة.

(٤) لطيفة = جاء في ترجمة موفق الدين أسعد بن بن أبي الفتح المطران: «وبلغ من كثرة اعتنائه بالكتب وغوايته فيها أنه جامعٌ لكثيرٍ من الكتب الصغار والمقالات المتفرّقة في الطب....
واجتمع عنده من تلك الأجزاء الصغار مجلداتٌ كثيرةٌ جدًا، فكان أبدًا لا يُفارق في كُمِّه مجلدًا يطالعُه علىٰ باب دار السلطان أو أين توجّه. وبعد وفاته بِيعت جميعُ كتبه وذلك أنه ما خلّف ولدًا.
وحدثني الحكيمُ عمرانُ الإسرائيليُّ أنه لما حضر بيعَ كتب ابن المطران وجدهم وقد أخرجوا من هذه الأجزاء الصغار ألوفًا كثيرةً أكثرُها بخط ابن الجمالة.... فبلغت في المناداة ثلاثة آلاف درهم واشترىٰ الحكيمُ عمرانُ أكثرَها، وقال لي: إنه حصل الاتفاقُ مع الورثة في بيعها أنهم أطلقوا مع كل جزءٍ منها بدرهمٍ، فاشترىٰ الأطباءُ منهم هذه الأجزاء الصغار علىٰ الثمن بالعدد». عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٣/ ٢٩٣).

العنايةُ بقراءةِ الكتبِ التي تتناولُ موضوعَ العلم، وتبيّنُ معالمَه، وتشرحُ مناهجَه، وتذكُرُ طَرائِقَه وآدابَه.

فإنها من أعظمِ المُحفِّزاتِ علىٰ القراءة والاطّلاع.

ومِن تلك الكتب:

- «**الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع**»: للخطيب البغدادي.
- «**جامع بيان العلم وفضله**»: لابن عبدالبرّ القرطبي.

وهو العُمدةُ في هذا الباب.

- «**تعليم المتعلّم طريق التعلّم**»: للزَّرْنُوجي.
- «**أدب الإملاء والاستملاء**»: للسمعاني.
- «**مفتاح دار السعادة**»: لابن القيّم.

وهو نفيسٌ للغاية.

- «**تذكرة السامع والمتكلّم، في أدب العالم والمتعلّم**»: لابن جماعة.

وهو كتابٌ مَدْرَسِيٌّ جامعٌ نافعٌ.

- «**مفتاح السعادة**»: لطَاشْ كُبري زادَه.
- «**أبجد العلوم**»: لصدّيق حسن خان.
- «**حِلْية طالبِ العلم**»: لبكر أبو زيد.

وغيرُها.



يَنبغي اختيارُ الأوقاتِ المناسبةِ، والأماكنِ المُريحةِ لممارسةِ القراءةِ.

وذلك كالأوقات التي تكون بعدَ النَّوم؛ فإنَّ الذِّهنَ يكون فيها مُتيقّظًا نَشِيطًا. وكالأماكن ذات الهواء العليل والخُضْرة والماء(١).

---

(١) ذكر القلقشنديُّ في كتابه العُجاب: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا (٢/ ٣٢٠ -٣٢١) أنّ ممّا يُعِينُ علىٰ الإجادة والاتقان خُلُوُّ الفِكْر عن المُشَوِّش، وأرجعَ ذلك إلىٰ أمرين: **صفاء الزمان، وصفاء المكان.**

أمّا صفاءُ الزمان، فقال عنه: «قال أبو تمام الطائيّ في وصيّته لأبي عُبادةَ البحتريّ مُرشدًا له للوقت المناسب لذلك: تخيّرْ الأوقاتَ وأنت قليلُ الهُموم، صِفرٌ من الغُمُوم، واعلمْ أنّ العادةَ في الأوقات إذا قَصَدَ الإنسانُ تأليفَ شيءٍ أو حِفظَه أن يختار وقتَ السَّحَر؛ فإن النفسَ تكون قد أخذتْ حظَّها من الراحة، وقِسْطَها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصفا الدّماغُ من أكثر الأبخرة والأدخِنة، وسكنتْ الغَماغِم، ورَقَّتْ النسائِم، وتغنّتْ الحمائِم.

وخالف ابنُ أبي الأِصبع في اختيار وقت السَّحَر، وجَنَحَ إلىٰ اختيار وسَط الليل؛ أخْذًا من قول أبي تمّام في قصيدته البائية:

خُذْها ابنةَ الفِكْرِ المهذَّب في الدُّجىٰ والليلُ أسودُ رُقعَةِ الجلبابِ

مفسِّرًا للدُّجىٰ بوسَط الليل، محتجًّا لذلك بأنه حينئذٍ تكون النفسُ قد أخذتْ حظَّها من الراحة، ونالتْ قِسْطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، فيكونُ الذِّهنُ حينئذٍ صحيحًا، والصدرُ مُنشرحًا، والبدنُ نشيطًا، والقلبُ ساكنًا. بخلاف وقت السَّحَر فإنه وإنْ كان فيه يَرِقُّ النسيمُ، وينهضمُ الغذاءُ، إلا أنه يكون قد انتبه فيه أكثرُ الحيوانات، الناطقُ وغيرُه، ويَرتفعُ معظمُ الأصوات، ويَجري الكثيرُ من الحرَكَات، ويَنقشعُ بعضُ الظّلماء بطلائع أوائل الضوء.

وربما انهضمَ عن بعض الناس الغذاءُ فتحرَّكتْ الشهوةُ لإخلاف ما انهضمَ منه وخرج من فَضَلاتِه، فكان ذلك داعيًا إلىٰ شُغْل الخاطر، وباعثًا علىٰ انصراف الهمِّ إلىٰ تدبير الحَدَث =

⇦ **ولذا؛ فإنّ الإمامَ الذَّهبيَّ** رَحِمَهُ اللهُ لما نزل كَفْر بَطْنا في غُوطَة دمشق – وهي منطقةٌ جميلةٌ بديعةٌ(١) – أَلَّف أكبر مُؤلَّفاته، وأعظم مُصنَّفاته: «**تاريخ الإسلام**» و«**سِيَر أعلام النُّبلاء**» وغيرهما.

فالأماكنُ الجميلة تُعِينُ علىٰ الفَهم والتَّركيز والتأمُّل والتدبُّر(٢)، وإنْ كان

=

الحاضر، فيتقسَّمُ الفِكْرُ، ويتذبذبُ القلبُ، ويتفرَّقُ جميعُ الهَمِّ، بخلاف وسَط الليل؛ فإنه خالٍ من جميع ذلك».

ثم قال عن صفاء المكان: «وذلك بأن يكون المكانُ الذي هو فيه خاليًا من الأصوات، عاريًا عن الـمَخُوفاتِ والـمَهُولاتِ والطوارقِ، وأن يكون مع ذلك مكانًا رائقًا مُعْجِبًا، رقيقَ الحواشي، فسيحَ الأرجاء، بَسيطَ الرِّحاب، غيرَ غَمٍّ ولا كَدِرٍ، فإنْ انضمَّ إلىٰ ذلك ما فيه بَسْطٌ للخاطر: من ماءٍ وخُضْرةٍ وأشجارٍ وأزهارٍ وطِيبِ رائحةٍ، كان أبسطَ للفِكْر وأنْجَحَ للخاطِر.

وقد ذهب بعضُهم إلىٰ أنه ينبغي خُلُوُّ المكان من النقوش الغَريبة، والمرائي الـمُعجِبة؛ فإنها وإنْ كانتْ مما ينشِّطُ الخاطرَ فإنّ فيها شُغْلًا للناظر فيتبعُه القلبُ فيتشتّت!».

(١) **قال ياقوت الحموي**: «الغُوطَةُ كلُّها أشجارٌ وأنهارٌ متّصلةٌ، قلّ أن يكون بها مزارعُ للمستَغَلَّات، إلا في مواضع يسيرة. وهي بالإجماع أنْزَهُ بلادِ الله، وأحسنُها منظرًا. وهي إحدىٰ جِنان الأرض الأربع: وهي الصُّغْد، والأُبُلَّة، وشِعب بَوّان، والغُوطَة، وهي أجلُّها». معجم البلدان (٤/ ٢١٩).

وخالفَ في ذلك ابنُ حَوْقَل، فقال عن الصُّغْد (ويُسمّىٰ السُّغْد أيضًا) إنه أنزهُ الأربعة؛ لأنه ممتدٌّ نحوَ ثمانية أيام، مُشتبِكُ الخُضْرة والبساتين، لا ينقطع ذلك في موضعٍ منه، وقد حُفّتْ تلك البساتينُ بالأنهار الدائمِ جَرْيُها، ومِن وراء الخُضْرة من الجانبين مزارعُ، ومِن وراء المزارع مراعي السوائِم! ثم قال: وهي أزكىٰ بلاد الله وأحسنُها أشجارًا.

انظر: صورة الأرض: لابن حوقل (٢/ ٤٧٣)، ومسالك الأبصار: للعُمري (٣/ ١٦٧)، وصبح الأعشىٰ: للقلقشندي (٤/ ٤٣٢).

(٢) وهو هدفٌ من أهداف القراءة المفيدة كما لا يخفىٰ. ولذا يقول شيخُ البلاغة أ.د. محمد أبو موسىٰ في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «مراجعات في أصول الدرس البلاغي»: «إنَّ

=

لا يُوصَىٰ بها في الحفظ؛ لأنّ الحفظَ ينبغي أن يكون في مكانٍ غيرِ مُلْهٍ.



=

القراءةَ من غير تدبُّرٍ وتأمُّلٍ ومراجعةٍ ضارَّةٌ بالعلم، وقد تجد الرجل يَقرأ ويُقال له: قارئٌ، ويَكتب ويقال له: كاتبٌ، وهو لم ينتفع بما قرأ، ولم ينفع بما كتب».

الاهتمامُ بـالدَّوريَّات والمجلّات العِلْميّة المحكَّمة.

وهي المجلّاتُ التي تَصدُرُ غالبًا عن الجامعات، والمجامع العلميّة، واللغويّة، والمراكز البحثيّة، ونحوِها.

⇦ **حيثُ نُلاحِظُ** عُزُوفًا من طلّاب العلم - لا سيّما المتقدِّمين منهم في التحصيل - عن الاستفادة من الدَّوريَّات والمجلّات العِلميّة المحكَّمة؛ مع أنَّ فيها كثيرًا من الدِّراساتِ الـمُمَيَّزة، والأبحاثِ المحرَّرة، والتحقيقاتِ الجيّدةِ لكثيرٍ من المخطوطاتِ النفيسة.

⇦ **ولا يَنبغي** أنْ نَغفلَ هنا أيضًا عن المجلّات الأدبية والثقافيّة الرصينة التي كانت تَصدُرُ في القرن الماضي؛ فإنّ فيها من نفائسِ المقالاتِ وغُرَرِ القصائدِ الشيءُ الكثيرُ.

وهي مجلّاتٌ كان يَكتبُ فيها كبارُ الكتّاب والأدباء والشعراء، فمَنْ رامَ تقويةَ أسلوبه، وتمتينَ بيانه، وزيادةَ معارفه وثقافته، فعليه بها.

⇦ **ويقف علىٰ رأس تلك القائمة** - من القسم الثاني -:

«**مجلّةُ الرسالة**» التي كان يُصدِرُها الأستاذُ أحمد حسن الزيّات رَحِمَهُ اللهُ.

و«**مجلّةُ المنار**» التي كان يُصدِرُها الشيخُ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ.

فهـذه المجـالُّ(١) تُلحَـقُ بتلـك؛ لِعِظَـمِ نفعهـا، ....

---

(١) **المَجَالُّ**: جَمْع مَجَلَّة، وهي الصُّحُف. وفي الحَدِيث قال: «ما مَعَك؟ قال: مَجَلَّة لُقْمان». يَعنِي: كِتابًا فيه حِكْمة لُقْمان، **قال النابغة:**

مجَلَّتُهمُ ذَاتُ الإِلَهِ ودِينُهم ... قَوِيمٌ، فما يرجون غَيْرَ العَواقِبِ

=

.... وكثرةِ فوائدها.



=

أي: كِتابُهم وَحْيُ اللهِ تَعالَىٰ.

قال الجَبَّان: يقال: إنَّها مُعَرَّبة، أَصلها بالعِبْرانِيّة مُغْلَىٰ.

وقيلَ: هو من جَلّ؛ لجَلال الحِكْمَة. وهي مصدر كالمَذَلَّةِ، فَسُمِّيَ بها كما سُمِّي بالكِتابِ، أو بِمَعْنَىٰ الجَلال. المجموع المغيث في غريبيْ القرآن والحديث: للمديني (١/ ٣٤١).

الاهتمامُ بالأطاريح الجامعيَّة (رسائلِ الماجستير والدكتوراه) المتميِّزة.

سواءٌ المطبوعةُ منها، أو التي لم تُطبعْ بعدُ؛ لما فيها من العلم والتحقيق، والتحرير والتدقيق، لكثيرٍ من المسائل المهمّة، والقضايا المعاصرة.

⇦ **وكُلَّما تسنّىٰ لي المرورُ** علىٰ قسم الرسائل الجامعية في مكتبات الجامعات، أُصبتُ بالدَّهْشةِ، وتَمَلّكَني العَجَبُ، من تلك الموضوعاتِ القيّمةِ التي كَتَب فيها أصحابُ تلك الرسائل، **متسائلًا**: كيف أنها لم ترَ النورَ بعدُ؟! وكيف غَفَلَ أصحابُ دور النشر عنها حتىٰ الآن؟!

⇦ **فإنْ شُغِلَ الطالبُ** عن قراءة الرسالةِ بأكملها؛ فلا أقلّ من أنْ يقرأَ المقدِّمةَ، والخاتمةَ، والنتائجَ، والتوصياتِ.



القراءةُ أنواعٌ كثيرةٌ، لكنَّ أهمَّها ثلاثة:

١- **قراءةُ بَحْثٍ وتَنْبِيشٍ**: وهذه قراءةٌ متأنِّيةٌ، يجمعُ فيها القارئُ من بطون المصادر والمراجع ما يُفيدُه في بحثه، ثمّ يعودُ علىٰ ما جمعَه بالتأمُّل والتفكُّر والفَحْص والموازنة؛ لِيصطفي منه الأجودَ والأنسبَ.

وهذه الطريقةُ هي التي تُستخدَمُ عادةً في تأليف الكتب والرسائل.

٢- **قراءةُ جَرْدٍ وتقْمِيشٍ**: وهذه تكون قراءةً سريعةً تُلتَقَطُ فيها الشواردُ، واللطائفُ، والنظائرُ، والمسائلُ التي في غير مظانِّها من الكتب وغيرِها، وتقيَّدُ.

فيأخذُ المطالعُ كتابًا من الكتبِ الأمَّاتِ، كتفسير ابن جريرٍ مثلًا، أو «التمهيد» لابن عبد البرّ، أو «سير أعلام النُّبلاء» للذهبي، أو «البداية والنِّهاية» لابن كثير، وما أشبهَهَا، ويقرؤه قراءةً سريعةً؛ ولا يتوقّفُ عند مباحثه وموادّه، بل يَمُرُّ عليها مرَّ السحاب، يقتنصُ منها الشَّوارِدَ الفَوارِد، ثم يقيّدُها بعدَ ذلك في بطاقاتٍ (كُرُوت)[1]، ولا يفرِّطُ فيها، فقد يحتاجُ إلىٰ البطاقة ولو بعدَ عَشَرَاتِ

(١) **ينبغي أن يُعلمَ** أنّ تدوينَ الفوائد والشوارد في بطاقاتٍ ليس من ابتكارات هذا العصر كما قد يُظنّ، وإنما هو معروفٌ من قديم.

◆ **فقد قال ياقوتُ الحمويُّ (ت ٦٢٦ هـ)** في إرشاد الأريب (٤/ ١٨٦٧) في ترجمة علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الأسدي المعروف بابن الكوفي: «وبِيعَ جُزازاتُ كتبه ورِقاعُ سؤالاتِه العلماءَ كلُّ رقعةٍ بدرهمٍ!».

◆ **وقال ابنُ المستوفي (ت ٦٣٧ هـ)** في تاريخ اربل (١/ ٢٤٥) في ترجمة بارسطغان بن محمود بن أبي الفتوح الغزي: وجدتُ بين أجزائه جُزازةً فيها «للمملوك الأندلسي القرموني: =

=

أَبَـا طَالِـبٍ لَا زِلْـتَ رَفْـدًا لِطَالِـبٍ ... يَتُـوقُ إلـىٰ بـذل اللُّهـىٰ وَالْمَوَاهِـبِ

وَلَا زِلْـتَ نَجْـمَ الـدِّينِ بِـالْعِلْمِ وَالسَّـنَىٰ ... تلـوح كبـدر الـتَّمِّ بـين الكواكـبِ»

إلخ الأبيات.

وقال ابنُ اللَّمِش (ت ٦٤٠ هـ) في تاريخ دُنَيْسر (ص/ ١١٧) في ترجمة شيخه أبي الكرم محمد بن عبد الله بن محمد الأكاف الموصلي الشافعي: «رأيتُ يومًا غلامًا كان له، وهو خارجٌ من عنده، وبيده جُزازةٌ، فسألتُه عنها فناوَلَنيها، وإذا فيها بخطِّه رَحِمَهُ اللهُ، قد كتبَه في ذلك الوقت: قال بعضُهم: ابنَ آدم! إنما أنت أيامٌ، إذا مرَّ يومٌ نقصَ بعضُك.

فأنشد بعضُهم في المعنىٰ شعرًا:

المـرءُ عِـدَّةُ أيـامٍ مُجمَّعـةٍ ... وكلَّمـا نقصـتْ أيامُـه نَقَصَـا

فكيـفَ يَهنـا بعـيشٍ أو يلـذُّ بهـا ... مَنْ كان يُمسِي ويُضحِي الدَّهرَ مُنْتَقَصَا

كَـمْ طالـبٍ لـم ينـلْ بـالحِرصِ حاجتَـه ... ونالهـا غيـرُه عَفْـوًا ومـا حَرَصَـا»

وجاء في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) (١٢/ ٦١٤): الهَضيمُ من النساء: اللطيفة الكَشْحيْن، وكَشْحٌ مهضومٌ؛ وأنشد ابن برِّي لابن أحمر:

هُضُـمٌ إذا حُـبَّ القُتـارُ وهـمْ ... نُصُـرٌ، إذا مـا اسـتُبْطِىءَ النصْـرُ

ورأيتُ هنا جُزازةً مُلصقةً في الكتاب فيها: هذا وَهَمٌ من الشيخ؛ لأنَّ هُضُمًا هنا جمعُ هَضوم الجوادُ المِتلافُ لماله، بدليل قوله: نُصُرٌ جمعُ نصير، قال: وكلاهما من أوصاف المذكَّر».

وقال الحافظُ الذهبيُّ (ت ٧٤٨ هـ) في سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٦-١٧) في ترجمة الحافظ أبي طاهر السِّلَفي: «وقد جمعوا له من جُزازه وتعاليقه (معجمَ السفر) في مجلدٍ كبيرٍ».

فعلّق علىٰ كلامه محقِّقُ المجلد بقوله: «الذي جمعه هو العلَّامةُ الحافظُ زكيُّ الدين عبدُ العظيم المنذريُّ المتوفىٰ سنة (٦٥٦). وكتبه كما يجيء لا كما يجب، لذلك لم يكن ترتيبُه كما ينبغي، وقد بقيتْ عبارةُ المنذري عن جمع الكتاب من الجُزازات موجودةً في

=

.... السِّنين!»[(١)].

⇦ **ولذا**؛ فقد سُئل بعضُهم عن الكلام، **فقال:** رِيحٌ لا يبقىٰ! قيل له: فما قَيْدُه؟ قال: الكتابةُ؛ لأنّ القَلَمَ ينوبُ عن اللسان، ولا ينوبُ اللسانُ عنه»[(٢)].

☜ **وقال قتادةُ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القَلَمُ نعمةٌ من الله عظيمةٌ، لولا القَلَمُ لو يقمْ دِينٌ، ولم يَصلُحْ عَيشٌ»[(٣)].

= صدر نسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة من (معجم السفر). انظر التفاصيل في مقال الدكتور بشار عواد عن (معجم السفر) في مجلة المورد م (٨) عدد (١) ص: ٣٨١».

لطيفة = جاء في المقامة الوَبَرِيّة من مقامات الحريري (ص/ ٢١٥):

قُـــلْ لمُســـتَطلِعٍ دَخيلَـــةَ أمـــري ... لـــكَ عِنـــدي كَرامَـــةً وعَـــزازَهْ

أنـــا مـــا بـــينَ جـــوْبِ أرضٍ فـــأرْضٍ ... وسُـــــرًىٰ في مَفـــــازَةٍ فمَفـــــازَهْ

زادِيَ الصّـــــيدُ والمَطيّـــــةُ نعْلـــــي ... وجَهـــــازِي الجِـــــرابُ والعُكّـــــازَهْ

فـــإذا مـــا هبَطْـــتُ مِصْـــرًا فبَيْتـــي ... غُرفَـــةُ الخـــانِ، والنّـــديمُ جُـــزازَهْ

(١) **قال ابنُ جماعة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يوصي طلّابَ العلم:** «ولا يَستقلَّ بفائدةٍ يسمعُها، أو يتهاونُ بقاعدةٍ يضبطُها، بل يبادرُ إلىٰ تعليقها وحِفظها.

ولتكنْ همتُه في طلب العلم عاليةً؛ فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيرِه، ولا يقنعُ من إرث الأنبياء صلوات الله عليهم بيسيرِه.

ولا يؤخِّرُ تحصيلَ فائدةٍ تمكّن منها، أو يشغلُه الأملُ والتسويفُ عنها، فإنّ للتأخير آفات، ولأنه إذا حصَّلها في الزمن الحاضر، حصَّل في الزمن الثاني غيرَها». تذكرة السامع والمتكلم (ص/ ١٨٩). **وانظر:** الفنون الصغرىٰ: للظاهري (ص/ ١٨١).

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل: للخازن (٤/ ٤٤٨).

(٣) المصدر نفسه.

◆ **وقال ابنُ القيّم:** عن قول الحقّ ﷻ: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ «أقسم بالكتابِ وآلَتِه، وهو =

(القلم) الذي هو إحدىٰ آياتِه، وأولُ مخلوقاتِه، الذي جرىٰ به قَدَرُه وشَرْعُه، وكُتبَ به الوحيُ، وقُيّد به الدينُ، وأُثبتَتْ به الشريعةُ، وحُفِظتْ به العلومُ، وقامت به مصالحُ العباد، في المعاش والمعاد، فوُطِّدَتْ به الممالكُ، وأُمِّنتْ به السبلُ والمسالكُ، وأقام في الناس أبلغَ خطيبٍ وأفصحَه، وأنفعَه لهم وأنصحَه، وواعظًا تَشفي مواعظُه القلوبَ من السقَم، وطبيبًا يُبرئُ - بإذن بارئه - من أنواع الألم، يَكسِر العساكرَ العظيمةَ علىٰ أنه الضعيفُ الوحيدُ، ويَخاف سطوتَه وبأسَه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تُدبَّرُ الأقاليمُ، وتُساسُ الممالك.

والقلَمُ لسانُ الضمير، يُناجيه بما استترَ عن الأسماع، فيَنْسِجُ حُلَلَ المعاني في الطرفين فتعودُ أحسنَ من الوَشْي المرقوم، ويُودِعُها حِكَمَه فتصيرُ مواردُ الفُهوم والأقلام نظامًا للأفهام.

وكما أن اللسانَ بريدُ القلب فالقلمُ بريدُ اللسان، وتَولُّدُ الحروف المسموعة عن اللسان كتولُّدِ الحروف المكتوبة عن القلم. والقلمُ بريدُ القلب ورسولُه وترجمانُه ولسانُه الصامت». التبيان في أيمان القرآن (ص/ ٣٠٢ - ٣٠٣).

وانظر للمزيد: «**التعريف والإعلام بفضيلة الخطوط والأقلام**»: للحسن بن محمد الغسّال، طبع الرابطة المحمدية للعلماء، بالمملكة المغربية.

فائدة = يكادُ يقعُ الاتفاقُ بين الأدباءِ علىٰ أنّ أفضلَ ما قيل في القلم شعرًا؛ قولُ أبي تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيّات:

لـكَ القلـمُ الأعلـىٰ الـذي بِشَـبَاتِهِ ... تُصـابُ مـن الأمـرِ الكُلَـىٰ والمفاصِـلُ
لـه الخلـواتُ الّـلاءِ لـولا نَجِيُّهـا ... لمـا احتفلـتْ للمُلْـكِ تلـكَ المحافِـلُ
لُعَـابُ الأفـاعي القـاتلاتِ لُعابُـه ... وأَرْيُ الجنَـىٰ اشْـتارتْهُ أيـدٍ عَواسِـلُ
لـه رِيقَـةٌ طَـلٌّ ولكـنّ وَقْعَهـا ... بآثـاره في الشـرق والغـرب وابِـلُ!
فصـيحٌ إذا اسـتنطقتَه وهْـو راكـبٌ ... وأعجـمُ إن خاطبتَـه وهْـو راجِـلُ
إذا مـا امتطىٰ الخَمْسَ اللِّطافَ وأفرغتْ ... عليـه شـعابُ الفِكـر وهـي حَوافِـلُ

⇦ فإنْ شقَّ علىٰ القارئ كتابةُ تلك الشوارد في بطاقاتٍ؛ فليصنعْ للنظائر والمتشابهات فِهْرِسًا، يكتبه في دفترٍ خاصٍّ عنده، ويقيّد في كلِّ صفحةٍ عنوانًا جديدًا، فإذا ما وجد معلومةً تتّصل بذلك العنوان أشار إليها في تلك الصفحة، ذاكرًا: اسمَ الكتاب، ورقمَ الجزء والصفحة، والطبعةَ، وسيجتمِع له مع مرور الوقت آلافُ المسائِل، ونفائسُ الحصائِل، وأولُ الغيثِ قَطْرٌ ثمّ ينهمرُ!

⇦ ويا حبَّذا لو كان لكلّ فنٍ دفترٌ مُستقلٌّ، فالحديثُ له دفترٌ، والفقهُ له دفترٌ، والتأريخُ له دفترٌ... وهكذا.

وهذه هي طريقةُ **العلّامة بكر أبو زيد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما حدّثني بذلك عن نفسه[(١)].

=

أطاعتْــهُ أطــرافُ الرِّمــاحِ، وقُوِّضــتْ ... لنجــواه تقــويضَ الخيــامِ الجحَافِــلُ

إذا اســتغْزَرَ الــذِّهْنَ الــذكيَّ وأقبلــتْ ... أعاليــهِ في القِرطــاسِ وهْــي سَــوافِلُ

وقــد رفدتْــه الخِنصــرانِ وسَــدَّدتْ ... ثــلاثَ نواحِيــهِ الــثلاثُ الأنامِــلُ

رأيــتَ جلــيلاً شــأْنُهُ وهْــو مُرْهَــفٌ ... ضَــنىً، وســميناً خَطْبُــهُ وهْــو ناحِــلُ!

⬅ قال الآمديُّ: «ما وصفَ الناسُ القلمَ بأجودَ، ولا أبرعَ، ولا أصحَّ معانٍ وألطفَ من هذا الوصف». الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري (٣/ ٤٧).

⬅ وقال أبو الحسن البُنَّاهي المالَقي: «وللناس في القلم أمداحٌ ومقاماتٌ ما بين نظمٍ ونثرٍ، والمقدَّمُ قولُ أبي تمامٍ حبيبٍ في مخاطبته محمدَ بنَ عبد الملك». الإكليل في تفضيل النخيل (ص/ ٣٤٥).

وانظر: العقد الفريد: لابن عبدِ ربّه (٤/ ٢٧٤)، وكنز الكتّاب ومنتخب الآداب: للبونسي (١/ ١٨٢).

(١) وقد أشار إلىٰ ذلك أيضًا في كتابه النفيس حِلية طالب العلم (ص/ ١٧٥) - المطبوع ضمن المجموعة العلمية - حيثُ قال: «اجعلْ لك (كُنَاشًا) أو (مُذكّرةً) لتقييد الفوائد والفرائد

=

٣- قراءةُ تصفُّحٍ وتَفتيشٍ: وهذه تكون قراءةً عابرةً، الغرضُ منها فَتْشُ الكتب والدوريّاتِ والمَجَلّات وتصفُّحُ أوراقها؛ للوقوف علىٰ معالمها الرئيسة، بحيثُ يُطالِعُ فيها عناوينَ الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، وينظرُ في مقدِّماتِها وفهارِسِها.

☜ **قال الشيخُ ابنُ عقيلٍ الظاهريّ:** «وقراءةُ التصفُّح هذه لن تَذهبَ سُدَىً؛ لأنه سيبقىٰ في ذهنك ملامحُ عامةٌ للمباحث التي قرأتَها، فترجِعُ إليها إذا احْتَجْتَها»[١].



=

والأبحاث المنثورة في غير مظانّها، وإن استعملتَ غلافَ الكتاب لتقييد ما فيه من ذلك، فحَسَنٌ، ثم تنقُل ما يجتمع لك بعدُ في مذكِّرة، مرتِّبًا له علىٰ الموضوعات، مقيِّدًا رأسَ المسألة، واسمَ الكتاب، ورقمَ الصفحة والمجلّد».

(١) الفنون الصغرىٰ (ص/ ١٨١).

اِحرصْ علىٰ تسجيلِ الفوائد وحفظِها أوَّلًا بأوّل[١].

لأنّ (العلمَ صيدٌ، والكتابةَ قيدٌ)، كما قال سُحنونُ بنُ سعيد المالكي[٢].

ولذا جاء في الحديث: «قَيِّدوا العلمَ بالكتابة»[٣].

وعن أبي كيران، قال: سمعتُ الشعبيَّ، يقول: «إذا سمعتَ شيئًا فاكتبْه ولو في الحائط!»[٤].

وقيل لابن المبارك: إلىٰ كمْ تكتبُ الحديثَ؟! قال: «لعلَّ الكلمةَ التي أنتفعُ بها لم أسمعْها بعدُ!»[٥].

وقال الحسنُ بنُ منصور الجصّاصُ: «قلتُ لأحمدَ بنِ حنبل: إلىٰ متىٰ يكتبُ الرجلُ الحديثَ؟ قال: حتىٰ يموتَ!»[٦].

وقال القاضي المعافىٰ بن زكريّا: «كنتُ منذ سنينَ كثيرةٍ دعوتُ اللهَ ﷻ وقلتُ: يا سابقَ الفَوْت، وقلتُ في وقتٍ آخَر: يا سابقَ كلِّ فَوْتٍ، وكان عندي

---

(١) هذا العُنصُرُ يَشملُ جميعَ أنواع القراءة، لكنه أليقُ شيءٍ بقراءة: الجَرْد والتقْميش، فتفطّنْ لهذا هُدِيتَ إلىٰ الصواب.

(٢) انظر الفواكه الدواني علىٰ رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ١٥٤).

(٣) رُوي مرفوعًا وموقوفًا، وصحّ من حديث أنس بن مالك وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن العباس رضي الله عنهم. انظر تخريجه والكلام عليه في: سلسلة الأحاديث الصحيحة: للألباني (٥/ ٤٠) رقم (٢٠٢٦).

(٤) رواه زهير بن حرب في العلم (ص/ ٣٤)، والدولابي في الكنىٰ والأسماء (٣/ ٩٣٣) وأحمد في العلل ومعرفة الرجال - رواية ابنه عبد الله - (١/ ٢١٦)، والخطيب في تقييد العلم (ص/ ١٠٠).

(٥) شرف أصحاب الحديث: للخطيب البغدادي (ص/ ٦٨).

(٦) المصدر نفسه.

أنه شيءٌ خَطَرَ لي ولم أكن ذاكرًا لهذه الرواية ولا عالمًا بها في الوقت، فاستحسنتُ هذه الدعوةَ ثم وجدتُها عندي في ما سمعتُه وكتبتُه ورويتُه. وحكىٰ لي بعضُ بني الفرات عن رجلٍ منهم، أو من غيرهم، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قبل موته وتوفّي بعد ساعةٍ أو أقلَّ منها، فذكرَ له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فاستدعىٰ مِحبرةً وصحيفةً فكتبها، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لّا يدع اقتباسَ العلم حتىٰ يموت!»[(١)].

☜ وقال بديعُ الزمان الهمذاني في كلامه عن العلم: «**وَجَدْتُهُ شَيْئًا لا يَصْلُحُ إلاَّ لِلْغَرْسِ، وَلاَ يُغْرَسُ إِلاَّ بالنَّفْسِ. وَصَيْدًا لاَ يَقَعُ إِلاَّ فِي النَّدْرِ، وَلا يَنْشَبُ إِلاَّ فِي الصَّدْرِ**»[(٢)].

☜ وكان عبدُ الله بنُ الْمُبَارك يُنشدُ:

أَيُّهَـــــا الطَّالِـــــبُ عِلمًـــــا ... إِئْـــتِ حَمَّـــادَ بـــنَ زيـــدِ
فَخُـــذْ الْعلـــمَ بحِلْـــمٍ ... ثـــمَّ قَيِّـــدْه بِقَيْـــدِ
وَدَعِ الْبِدْعَـــةَ مِـــنْ آثَـــا ... رِ عَمْـــرِو بْـــنِ عُبَيْـــدِ[(٣)]

☜ وممّا يُنسب للإمام الشافعي:

---

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (٣/ ٢٢٢).
(٢) مقامات بديع الزمان الهمذاني (المقامة العِلميّة) (ص/ ٣٠٢).
(٣) الأبيات في: التاريخ الكبير: للبخاري (٣/ ٢٥)، والكامل: لابن عديّ (٦/ ١٧٨)، وذمّ الكلام وأهله: للهروي (٤/ ٢٢٠).

العِلمُ صَيدٌ والكِتابةُ قَيدُهُ ... قَيِّدْ صُيودَكَ بالحِبالِ الواثِقَهْ
فَمِن الحَماقَةِ أَنْ تَصيدَ غَزالَةً ... وتَفكّها[1] بَينَ الخَلائقِ طالِقَهْ!

⇦ ولم أرَ فيما قرأتُ؛ ممّا يحثُّ علىٰ انتهازِ الفُرَص، واقتناصِ القُنَص، وعدمِ التعجُّل، أوْقَعَ من هذين البيتين[2]:

اليومَ شيءٌ وغدًا مِثلُهُ ... مِنْ نُخَبِ العِلمِ التي تُلْتَقَطْ
يُحصِّلُ المرءُ بها حِكمةً ... وإنما السيلُ اجتماعُ النُّقَطْ!



(١) وردتْ هذه الكلمةُ في معظم المصادر: «وتتركها». وفيها خللٌ من حيثُ الوزنُ العروضيُّ. والصوابُ: «وتفكُّها» كما في حاشية إعانة الطالبين: للبكري (٤/ ٥).

(٢) البيتان في: إرشاد الطالبين: للأقفهسي (٢/ ٧٦٩)، والعقد الثمين: للفاسي (٢/ ٢٠٦)، وبغية الوعاة: للسيوطي (١/ ١٤).
وهما لبهاء الدّين محمد بن إبراهيم ابْن النّحاس الحَلَبِي النَّحْوِيّ (ت ٦٩٨ هـ) شيخ الديار المصرية في علم اللِّسَان.
ومن غرائبِه: أنه لم يتزَوَّج! وَلم يَأْكُل الْعِنَبَ قطّ، فقيل له في ذلك فقال: لِأَنِّي أحبُّه؛ فآثرت أَن يكون نَصِيبي فِي الْجنَّة!!

بادرْ إلىٰ تسجيلِ الخواطر والأفكار التي تمرُّ بذهنك مباشَرةً؛ فإنها سُرْعانَ ما تَتلاشَىٰ وتُنْسَىٰ!

وفي هذا يقولُ الإمامُ ابنُ الجوزي في مقدمة كتابه الماتع «**صيد الخاطر**»: «لما كانت الخواطرُ تجولُ في تصفّح أشياءَ تَعرِضُ لها، ثم تُعْرِضُ عنها فتذهبُ، كان من أولىٰ الأمور حفظُ ما يَخطُر؛ لكي لا يُنسىٰ. وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قيِّدو العِلمَ بالكِتابة**»[١].

وكمْ قد خَطَرَ لي شيءٌ، فأتشاغلُ عن إثباته، فيذهبُ، فأتأسَّفُ عليه! ورأيتُ من نفسي أنني كلما فتحتُ بَصَرَ التفكّر، سَنَحَ له من عجائب الغيب ما لم يكن في حسابٍ، فانْثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريطُ فيه، فجعلتُ هذا الكتابَ قَيْدًا لصيد الخاطر»[٢].

وقال العلّامةُ ابنُ عُثيْمين: «هناك فوائدُ لا تكاد تَطرأُ علىٰ الذِّهن، أو يَندُرُ ذِكْرُها والتعَرُّضُ لها، أو تكون مُستَجَدَّةً تحتاج إلىٰ بيان الحكم فيها، فهذه اِقتنصْها، وقيِّدْها بالكتابة، ولا تَقلْ هذه معلومةٌ عندي، ولا حاجة أن أقيّدها، لأنها سُرعانَ ما تُنسىٰ، وكم من فائدةٍ تمرّ بالإنسان فيقول هذه سهلةٌ ما تحتاج إلىٰ قيدٍ، ثم بعد فترةٍ وجيزةٍ يتذكّرُها ولا يجدُها. لذلك احرصْ علىٰ اقتناص الفوائد التي يَندُرُ وُقوعُها أو يَتجدّدُ وُقوعُها»[٣].

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) صيد الخاطر (ص/ ٣٥).

(٣) مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٢٦/ ٢١٠).

☜ **وقال الأديبُ الكبيرُ علي الطنطاوي** في تقديمه لكتاب «**صيد الخاطر**»:

«إنّ الخواطرَ لا تَفْتأُ تمرُّ علىٰ الذهن كأنها الطُّيُورُ التي تَجوزُ سماءَ الحقْل، تراها لحظةً ثم تَفتقِدُها، فكأنّكَ ما رأيتَها، فإذا أنتَ اصْطدتَها وقيّدتَها ملكتَها أبدًا!».

☜ **ولقد أحسنَ القائلُ:**

قَيِّـدْ بِخَطّـكَ مـا أبـداهُ فِكـرُكَ مِـنْ ... نتـائجٍ تُعجِـبُ الحُـذَّاقَ والفُضَـلَا

فمـا نتـائجُ فِكْـرِ المـرءِ بـارزةٌ ... في كلِّ وقـتٍ إذا مـا شـاءَها فَعَـلَا[1]



(١) حاشية إعانة الطالبين: للبكري (٤/ ٦).

لِقَيْدِ الصَّيْدِ وتسجيلِ الفوائدِ طُرُقٌ عِدّةٌ، منها:

١ - أنْ يُسجِّلَ القارئُ في فهرسٍ مُستقِلٍّ المسائلَ الشواردَ التي مرَّت به.

فإمّا أن يسجّل المسألةَ كاملةً بنصِّها؛ وقد تيسّر الأمرُ الآن بعد وجود (المكتبةِ الشَّامِلَةِ)[1] ومحرِّكاتِ البحث، والبرامجِ الكاتوبيّة، فيستطيعُ القارئُ أن يصلَ للمعلومة بسرعةٍ، ثم يَنسخَها، ويُلصِقَها عنده في ملفّات (وُوُرْد) يُعِدُّها لذلك.

وإمّا أن يسجِّلَ عنوانَها فقط، وقد تقدّم الكلامُ عن ذلك قريبًا.

---

(١) كان وجودُ (المكتبة الشَّامِلة) فَتْحًا عظيمًا على الباحثين والمؤلِّفين؛ حيثُ ساعدهم ذلك كثيرًا على إنجاز أبحاثهم ومؤلَّفاتهم، ولذا قلتُ فيها:

مِــنْ نِعَــمِ الــمُقتدِرِ المَــاثِلَهْ: ... مَوسُــوعةُ (المكتبــةِ الشَّــامِلَهْ)
فيهــا أُلــوفُ الكُتْــب قــد يُسِّــرتْ ... لكــلِّ مَــن يَطلُبُهــا حَاصِــلَهْ
إذا انْبَــرتْ للبحْــثِ عــن كِلْمــةٍ ... تخالُهــا فَاهِمــةً عَاقِلَــهْ!
تأتيــكَ بــالمطلوب في لحظــةٍ ... نتائجًــا وافــرةً هائِلَــهْ!
بــل زادتْ الرَّوعــةُ إذْ أصــبحتْ ... مربوطــةً بــ(الصــورة) الكامِلَــهْ!
قــد قرَّبــت للبــاحثين المــدى ... فأصــبحتْ أبحــاثُهم حافِلَــهْ
خاضــوا غِمــارَ البحــثِ في ظلّهــا ... فــاغْتنمَ الفُرْســانُ والرَّاجِلَــهْ!
مَوسُــوعةٌ صــارتْ لأهــلِ الحِجَــا ... فريضــةً، ليســتْ لهــم نافِلَــهْ!
فجَمِّلُــوا يــا قَــومُ أبحــاثَكُمْ ... بالبحــثِ في (المكتبــةِ الشَّــامِلَهْ)

٢- وهناك فَهْرَسةٌ يُسجّلها علىٰ الغِلافِ الداخليِّ للكتاب، سواءٌ أكان في أول الكتاب أم في آخره، ثم يعود إليها بعد ذلك، وهذه الطريقةُ هي الأكثرُ رَوَاجًا بين جمهرة القُرّاء والباحثين؛ لأنها الأسرعُ، ولأنها الأسهلُ في الرجوع إلىٰ فوائد الكتاب مجموعةً في مكانٍ واحدٍ.

وكان شيخُنا العلّامةُ حمّادٌ الأنصاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «مِن عادتي إذا قرأتُ كتابًا من الكتب أنْ أُفرِدَ ما فيه من الفوائد التي لا يَنتبه إليها كلُّ أحدٍ... ومن عادتي إذا قرأتُ كتابًا أنْ أُقيِّدَ فوائدَه علىٰ جِلْدة الكتاب»[(١)].

وقد رأيتُ ذلك علىٰ أغلفة كتبِ البحّاثة الشيخ/ بكر أبو زيد رحمه الله[(٢)].

لكنّ الإشكالَ في هذه الطريقة أنها غيرُ مصنَّفةٍ بحسب الموضوعات، ولذا يَحتاج مَن يريدُ التأليفَ في موضوعٍ مّا؛ أن يطوف علىٰ جميع كتبه؛ ليلتقطَ منها ما يتعلّقُ بموضوعه ذاك! وهذا فيه من المشقّة ما فيه![(٣)].

اللهمّ إلا أن يَنقلَ ما في الكتاب من الفوائد ويصنِّفَها بعد الانتهاء من قراءَةِ الكتابِ مباشرةً.



(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (١/ ٤٣٧).

(٢) إبَّانَ زيارتي قَديمًا لفرع مكتبتِه التي كانت بالمدينة المنوّرة.

(٣) ولذا؛ فقد بلغني عن بعض كبار الباحثين من المعاصرين، أنه كان يُعطي أولادَه خمسةَ ريالات عن كلّ فائدة يستخرجونها له من أغلفة الكتب، في موضوع البحث الذي يُزمِع التأليفَ فيه!!

⇦ ينبغي للقارئِ عدمُ التَّسليم بكلِّ ما يَقرأُ، مَهْما بلغَ شأْوُ المؤلِّف!

لأنَّ المؤلِّفَ - مهْما بلغَ من العِلْم - ليس معصومًا من الخطأ والخَطَل، والغفْلة والزَّلَل! فكلُّ بني آدم خطَّاءٌ، والكمالُ لله وحدَه(١).

⇦ ولذا تجدُ كبارَ المؤلِّفين دائِمي التصحيح والتصويب لِـمَا وَضَعُوه في كتبهم ومؤلَّفاتهم من آراءَ واجتهاداتٍ.

☜ قال مَعْمَرُ بنُ راشِدٍ: «لو عُورِضَ الكتابُ مائةَ مرةٍ ما كادَ يَسلَمُ من أنْ يكونَ فيه سَقْطٌ، أو قال: خَطَأٌ»(٢).

☜ وقال المزنيُّ: «قرأتُ كتابَ «الرسالة» علىٰ الشافعيِّ ثمانينَ مرةً، فما مِن مَرَّةٍ إلّا وكان يقفُ علىٰ خطأٍ!! فقال الشافعيُّ: هِيهْ، أبىٰ اللهُ أن يكونَ كتابٌ صحيحًا غيرُ كتابه»(٣).

---

(١) قال الحافظُ الناجِي: «رُويَ عن إمام القرّاء أبي بكر بن مجاهد - وهو مذكورٌ في «طبقات أصحابنا الشافعية» - أنه رأىٰ في المنام ربَّ العِزَّة ﷻ فختَمَ عليه خَتْمتينِ، فلَحَنَ في موضعيْن، فاغتمَّ، فقال سبحانه: «**يا ابنَ مجاهد، الكمالُ لي، الكمالُ لي**». عجالة الإملاء (١/ ١٤٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر (١/ ١٥٨).

(٣) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي: لعلاء الدين البخاري (١/ ٩).

وانظر: مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ٣٦).

◆ **وفي تفسير الإمام الشافعي** (٢/ ٦٣١) عن ابن أبي حاتم قال: سمعت الربيعَ بنَ سليمان يقول: «قرأتُ كتابَ (الرسالة المصريّة) علىٰ الشافعي نيِّفًا وثلاثين مرةً، فما مِن مرةٍ إلا كان يُصحِّحُه، ثم قال الشافعيُّ في آخِره: أبىٰ اللهُ أن يكون كتابٌ صحيحٌ غيرَ كتابه، ويدلُّ علىٰ ذلك قولُ الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ الآية.

=

☜ **وقال أيضًا:** «لو عُورِضَ كتابٌ سبعينَ مرةً، لوُجِدَ فيه خطأٌ، أبىٰ اللهُ أنْ يكونَ كتابٌ صحيحًا غيرُ كتابه»[(١)].

☜ **وقال عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل:** «عارضتُ بكتابٍ لأبي ثلاثَ عشرةَ مرةً، فلما كان في الرابعة خرج فيه خطأٌ! فوضعه من يده ثم قال: «قد أنكرتُ أنْ يَصِحَّ غيرُ كتابِ اللهِ ﷻ»»[(٢)].

☜ **وكتب أستاذُ البلغاءِ القاضي الفاضلُ عبدُ الرحيم البيسانيُّ** إلىٰ العمادِ الأصفهانيِّ معتذِرًا عن كلامٍ استدركَه عليه: «إنه قد وقع لي شيءٌ وما أدري أَوَقَعَ لك أم لا؟ وها أنا أُخبرُك به، وذلك أني رأيتُ أنه لا يَكتبُ إنسانٌ كتابًا في يومه إلّا قال في غَدِه: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيْدَ هذا لكان يُستَحْسَن. ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ علىٰ استيلاء النقْص علىٰ جملة البشر!»[(٣)].

☜ **وقد قيل:** «لا يَبعُدُ ذو كمالٍ من نقصٍ، ولا يخلو ذو نقصٍ من كمالٍ، فلا يَمنعْكَ نقصُ الكمال من استفادة كلامِه، ولا يُوعِبْكَ كمالُ النقصِ في

=

◆ وفي **عُجالة الإملاء: للناجي** (١/ ١٤١): «**ورُوي عنه أيضًا:** «كلُّ كتابٍ لا يخلو من اختلافٍ؛ للآية المذكورة». هذا كلامُ الشافعي وناهِيكَ به!».

(١) مُوضِح أوهام الجمع والتفريق: للخطيب البغدادي (١/ ٦).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) **انظر المقولة في:** الإعلام بأعلام البلد الحرام: للنهروالي (ص/ ٤٥٦)، وكشف الظنون: لحاجي خليفة (١/ ١٤)، وإتحاف السادة المتقين: للزبيدي (١/ ٤)، وتحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العِظام: للصبّاغ المكي (١/ ٥٦)، والحِطّة في ذكر الصحاح الستة (ص/ ٣٢)، وأبجد العلوم: لصدّيق حسن خان (ص/ ٥٢).

الميل إلىٰ نقصِه»[١].

⇦ **فإنْ شكَّ القارئُ في شيءٍ**؛ عَرَضَه علىٰ كلام الأئمّة الآخَرِين، أو سألَ عنه العلماءَ، حتىٰ يَتجلَّىٰ له وجهُ الصوابِ، ويَتحصَّلَ له بَرْدُ اليقين.



(١) تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام (١/ ٥٦).

لا ينبغي تركُ الاستفادةِ من الكتابِ بالكلِّيّةِ؛ لِوقوعِ مؤلِّفه في بعضِ الأخطاءِ!

بل عليه أنْ يستفيدَ من الكتاب، ويأخذَ ما فيه من صوابٍ، ويدعَ ما فيه من خطأٍ؛ فالكمالُ عزيزٌ، والكامِلُ مَنْ عُدّتْ سَقَطَاتُه، والفاضِلُ مَنْ أُحصِيتْ هَفَوَاتُه[١].

وهذه قاعدةٌ نفيسةٌ زَلَّ بسبب عدم فهمها فئامٌ من الناس، ففاتهم خيرٌ كثيرٌ!

قال الحافظُ الذهبيُّ: «الكمالُ عزيزٌ، وإنما يُمدحُ العالِمُ بكثرة مالَه من الفضائل، فلا تُدفنُ المحاسنُ لورطةٍ! ولعلّه رجع عنها»[٢].

وقال أيضًا: «أرِني إمامًا من الكِبار سَلِمَ من الخطأ والوهم.

فهذا شعبةُ، وهو في الذِّروة، له أوهامٌ، وكذلك معمرٌ، والأوزاعيُّ،

---

(١) هذه القاعدة تكاد تكونُ موضعَ اتفاقٍ بين جمهرة العلماء عبر العصور.
ولعلّ أولَ من قال: «الكاملُ مَنْ عُدّتْ سَقَطَاتُه» الأحنفُ بنُ قيسٍ، كما في مُوضِح أوهام الجمع والتفريق: للخطيب (١/ ١٣)، وأخبار النحويين البصريين: للسيرافي (ص/ ٦١)، ونثر الدرّ: للرازي (٥/ ٣٤).
وممّن استشهد بهذا الأصل من العلماء: أبو هلال العسكريُّ في «شرح ما يقع فيه التصحيف» (ص/ ٦)، والرازيُّ في «مناقب الشافعي» (ص/ ١٥٨)، والثعالبيُّ في «يتيمة الدهر» (١/ ١١١) و (٤/ ٢٥٤)، وابنُ الشجريّ في «الأمالي» (٣/ ٢٦٧)، وابنُ الأنباريّ في «نزهة الألباء» (ص/ ٢٠٣)، وابنُ الأثير في «اللباب» (١/ ٩)، وابنُ القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٥٢٢)، والسمينُ الحلبيُّ في «الدرّ المصون» (١٠/ ٣٩٣)، والشاطبيُّ في «الموافقات» (١/ ١٣)، وبرهانُ الدين الناجي في «عجالة الإملاء» (١/ ١٣٩)، وغيرُهم.
(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٨٥).

ومالكٌ - رحمة الله عليهم -»[١].

وقال عن الإمام ابن خزيمة: «ولابن خزيمة عظمةٌ في النفوس، وجلالةٌ في القلوب؛ لعلمه ودينه واتباعه السنة. وكتابُه في (**التوحيد**) مجلدٌ كبيرٌ، وقد تأوَّل في ذلك **حديثَ الصورة**[٢]، فليُعذَرْ من تأوَّل بعضَ الصفات، وأما السلفُ، فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكَفُّوا، وفوَّضوا علمَ ذلك إلىٰ الله ورسوله،

---

(١) المصدر نفسه (٦/ ٣٦).

(٢) حديث الصورة: أخرجه البخاري في «صحيحه» ١١/ ٢ في أول الاستئذان، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة: باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، وأحمد: ٢/ ٣١٥، وابن خزيمة في «التوحيد» ٤٠ ٣٩ من طريق معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «خلق اللهُ آدمَ علىٰ صورته، طولُه ستون ذراعًا، فلما خلقه، قال: اذهب، فسلِّم علىٰ أولئك، نفرٍ من الملائكة جلوسٍ فاستمعْ ما يحيّونك، فإنها تحيتُك وتحيةُ ذريتك، فقال: السلامُ عليكم: فقالوا: السلامُ عليك ورحمةُ الله.

فزاده: «ورحمةُ الله» فكلُّ من يدخل الجنة علىٰ صورة آدم، فلم يزلْ الخلقُ ينقص بعدُ حتىٰ الآن».

وأخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٥) وأحمد: ٢/ ٤٦٣ و٥١٩، وابن خزيمة ص ٣٧ من طريق قتادة، عن أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قاتلَ أحدُكم أخاه فليجتنبْ الوجهَ، فإنّ اللهَ خلق آدمَ علىٰ صورتِه». (من حاشية محقِّقي سير أعلام النبلاء - ط الرسالة - (١٤/ ٣٧٤).

قال الحافظ أبو موسىٰ المدينيُّ في (مناقب الإمام إسماعيل بن محمد التيمي الملقب: بقِوامِ السنة): «سمعتُه يقول: «أخطأ محمد بن إسحاق بن خزيمة في حديث الصورة، ولا نطعنَ عليه بذلك، بل لا يُؤخذُ عنه هذا فحسبُ».

قال أبو موسىٰ: أشار بهذا إلىٰ أنه قَلَّ إمامٌ إلا وله زلَّةٌ، فإذا تُرِكَ لأجل زلَّته، تُرِكَ كثيرٌ من الأئمة، وهذا لا ينبغي أن يُفعل». **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٨٨)، وجواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية: لابن تيمية (ص/ ١٦٨).

ولو أنَّ كلَّ مَنْ أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه، وتوخِّيه لاتباع الحق - أهدرناه، وبدَّعناه، لقلَّ مَنْ يَسلَمُ من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه»[(١)].

☜ وقال الإمامُ ابنُ دقيق العيد: «الحكيمُ من يُقِرُّ الْأُمُورَ في نصابها، ويُعْطِي كلَّ طبقَةٍ مَالا يَلِيق إلَّا بها.

وأمَّا السَّهْوُ والغَلَطُ فما أمكن تَأْوِيلُه علىٰ شَيْءٍ يُتَأَوَّلْ، وَمَا وُجِدَ سبِيلٌ واضحٌ إلىٰ تَوْجِيهِه حُمِلَ علىٰ أحسن مَحْمَلْ....

ولكنْ لا نجْعَلُ ذلك ذَرِيعَةً إلىٰ تَرْك الصّواب الجَمّ، ولا نَستحلُّ أَن نُقِيم فِي حقِّ المُصَنِّف شيئًا إلىٰ ارْتِكَاب مركب الذَّمّ. والذنْبُ الواحدُ لا يُهجَرُ له الحبيب، وَالرّوضةُ الحسناءُ لَا تُتْرك لموْضِعِ قبرٍ جَدِيب. والحسناتُ يُذْهِبْنَ السّيِّئات، وتركُ المصالح الراجحة للمفاسد المرجوحة من أعظم المبَآت. والكلامُ يَحمِلُ بعضُه بَعْضَا، ومَن أسخطه تَقْصِيرٌ يسيرٌ فسيقفُ علىٰ إِحْسَانٍ كَبِيرٍ فيرضَىٰ.

ولـو ذهبْنـا نَـتركُ كـلَّ كتـابٍ وقـع فيـه غَلَـط، أَو فَـرَطَ مِـن مُصَـنِّفه سَـهْوٌ أَو سَقَط. لضاق علينـا المجـال، وقَصُـرَ السِّـجال، وجَحَـدْنا فضـائِلَ الرِّجَـال. وفاتنا فوائدُ تُكاثرُ عَدِيدَ الحَصَا، وفَقَدْنا عوائدَ هِـيَ أجـدىٰ علينـا مـن تفـاريق الْعَصَا.

ولقد نفع اللهُ الأمّةَ بكتـبٍ طـارتْ كـلَّ المطـار، وجـازَتْ أجْـوازَ الفَلَـوَاتِ

---

(١) المصدر نفسه (١٤/ ٣٧٤ - ٣٧٦).

وأثْبَاجَ الْبِحَار. وما فيها إلّا ما وقع فيه عَيْب، وعُرِف منه غَلَطٌ بغير شكٍّ ولا رَيْب. ولم يَجعلْه النَّاسُ سببًا لرفضِها وهجرِها، ولا توقَّفوا عن الاستضاءة بأنوار الهدايةِ من أُفُقِ فَجْرِها»[(١)].

☜ وقال الحافظُ ابنُ حجر: «لو كان مَنْ يَهِمُ من المصنِّفين يُترَكُ لَمَا سَلِمَ أحدٌ»[(٢)].

☜ وقال الشيخُ بكرُ أبو زيد: «الآراءُ المغلوطةُ لم تكن سببًا في الحرمان من علوم هؤلاء الأجلَّة، بل ما زالتْ مناراتٍ يُهتدَىٰ بها في أيدي أهل الإسلام، وما زال العلماءُ علىٰ هذا الـمَشْرع يُنبِّهون علىٰ خطأِ الأئمة مع الاستفادة من علمهم وفضلهم، ولو سلكوا مسلكَ الهَجْر لهُدِّمت أصولٌ وأركان، ولتقلَّصَ ظِلُّ العلم في الإسلام، وأصبح الاختلالُ واضحًا للعيان، والله المستعان»[(٣)].

⇦ ولعلَّ من أظهرِ الأمثلة علىٰ ذلك كتابَ «المحلّىٰ» لابن حزمٍ الظاهريّ.

☜ فقد قال عنه الحافظ الذهبيُّ: «بَسَطَ لسانَه وقلمَه، ولم يتأدّبْ مع الأئمة في الخطاب، بل فَجَّجَ العبارةَ، وسَبَّ وجَدَّعَ، فكان جزاؤُه من جِنْس فعلِه، بحيثُ إنه أعرض عن تصانيفه جماعةٌ من الأئمة، وهجروها، ونفروا منها، وأُحرقتْ في وقتٍ، واعتنىٰ بها آخرون من العلماء، وفتَّشوها انتقادًا

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ: للسبكي (٩/ ٢٣٥ - ٢٣٦).
(٢) لسان الميزان (١/ ٤٠١).
(٣) تصنيف الناس بين الظنّ واليقين (ص/ ٩١).

واستفادةً، وأخذًا ومؤاخذةً، ورأوا فيها الدُّرَّ الثمينَ، ممزوجًا في الرَّصْف بالخَرَز المهين! فتارةً يطربون، ومرةً يعجبون، ومِن تفرُّده يهزؤون!

وفي الجملة فالكمالُ عزيزٌ، وكلُّ أحدٍ يُؤخذُ من قوله ويُتركُ، إلّا رسولَ الله ﷺ..... فلا نغلُو فيه، ولا نجفُو عنه، وقد أثنىٰ عليه قبلنا الكبارُ»[(١)].

⮌ **ومثلُه:** «**مقدّمةُ ابنِ خَلدون**» ففيها طائفةٌ من الأغلاط، وكذا كثيرٌ من كتب التفسير، وكتب شروح الأحاديث، وكتب الفقه وأصوله، وكتب اللغة والأدب.

⇦ **وهذا الأصلُ** - بطبيعةِ الحال - مخصوصٌ بكتب أهل السنة وما نَحَا نَحْوها، أمّا المبتدعةُ والضُّلّالُ ومَنْ شاكلَهم، فلا ينبغي الالتفاتُ لشيءٍ من كتبهم، ففي غيرها العافيةُ والغَنَاءُ!



(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٦ - ١٨٧).

لمعرفةِ مراحلِ تَطوّرِ العلوم، ونشأتِها، وأبرزِ المؤلَّفاتِ فيها، والتعريفِ بتلك المؤلَّفاتِ، يُرجَعُ إلىٰ كتب الدِّراسات الوَصْفيَّة، وهي الكتبُ التي تُعنىٰ بوصْفِ العلومِ، ومراحلِ نشأتِها، وتاريخِها، وتاريخ أعلامِها.

والتأليفُ في هذا اللَّون من الدراسات من أصعب الأمور؛ لأنَّ التأليفَ فيه يحتاج إلىٰ استقراءٍ تامٍّ للمُصنَّفات في ذلك العلم، ومعرفةٍ دقيقةٍ بروّاده وأعلامه، مع الإلمامِ بقضايا ومسائلِ ذلك العلم.

ومِن المؤلَّفات في هذا اللّون:

* **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: للشيخ محمد بن الحسن الحجَوي الثعالبي (ت ١٣٧٦هـ).
* **بحوثٌ في تاريخ السُّنة المُشرَّفة**: لأستاذنا الدكتور/ أكرم ضياء العُمَري - حفظه اللهُ تعالىٰ -.
* **البلاغةُ تطورٌ وتاريخٌ**: للدكتور/ شوقي ضيف.
* **نشأةُ النحو وتاريخُ أشهرِ النحاة**: للشيخ محمد الطنطاوي.

وما شابهَها.

فهذه الكُتُب التي تُعنىٰ بالدِّراساتِ الوصفيَّةِ للعلم في غاية الأهميَّة، خصوصًا إذا ما أراد الطالبُ أنْ يقرأ في علمٍ مّا؛ فإنه من المهمّ أن يقرأ معه كتابًا في تاريخ ذلك العلم؛ حتىٰ يَجمعَ بين تاريخِ العلم وأطوارِه، وبين مسائلِه ومباحثِه.

لمعرفةِ حجمِ وقوّةِ الحركةِ العلميَّةِ في فترةٍ زمنيّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ يُرجَعُ للكتب المرتَّبة علىٰ الطبقات(١)، أو السنين.

⇦ **لأنَّ هذه الكتب** تُيسِّر السبيلَ للوصول إلىٰ المطلوب؛ حيثُ يَعْمَدُ الباحثُ إلىٰ تحديد الفترةِ الزمنيّةِ المرادِ بحثُها من خلال هذه المؤلَّفات، ثم يقوم بعدَ ذلك بدراستها واستخلاص النتائج منها.

* فمِنَ الكتبِ المرتّبةِ علىٰ الطبقاتِ: «**سير أعلام النبلاء**» للذهبي.

* ومِن الكتب المرتّبة علىٰ السنين: «**البداية والنهاية**» لابن كثير.

---

(١) **الطبقاتُ**: جمعُ طبقة، والطبقة في الاصطلاح: جماعةٌ اشتركوا في السنّ والإسناد (لقاء المشايخ).

وربما اكتفوا بالاشتراك في التلاقي أو المعاصرة.

وهذا الاصطلاحُ ليس خاصًّا بالمحدِّثين فقط، بل يشمل جميعَ العلماء المختصِّين بفنٍّ معيَّنٍ: كالقرّاء، والفقهاء، والنحاة، واللغويين، والأطبّاء.... وغيرهم.

بل ويشمل كلَّ من اشتركوا في وصفٍ معيَّنٍ: كالصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين... إلخ.

وللعلماء في التأليف في هذا اللون من العلم وفي ترتيب الطبقات طرائقُ شتّىٰ، لا تحتمل ذِكرَها هذه الحاشيةُ، فراجعْها في مبسوطاتها. ومن ذلك كتاب بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور/ أكرم العُمَري (ص/ ٧٤ و ١٨٠).

ومِن المؤلَّفات في الطبقات: «**الطبقات الكبرىٰ**» لابن سعد. و«**طبقات الصوفية**» لأبي عبد الرحمن السلمي. و«**طبقات المحدِّثين بأصبهان**» لأبي الشيخ الأصبهاني. و«**المعين في طبقات المحدِّثين**» للذهبي. و«**معرفة القرَّاء الكبار علىٰ الطبقات والأعصار**» له أيضًا. و«**طبقات الفقهاء للشيرازي**». و«**طبقات الأطبّاء والحكماء**» لابن جُلْجُل. و«**نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء**» لابن الأنباري. وغيرُها.

لمعرفةِ المؤلَّفاتِ الأصِيلَة في علمٍ مّا، ومدىٰ أهميَّتِها، يُرجع لكُتُب المناهج، والموارد(١)، فإن فيها فائدةً عظيمةً؛ لا سيّما للمتخصّصين.

ففي التفسير مثلًا تُقرأُ كتبُ مناهج المفسِّرين، مثلُ: منهج الطبري في تفسيره، أو القرطبي، أو ابن كثير. وكلُّها قد كُتب فيها.

ومثلُه الحديثُ، والفقهُ، والتَّوْرِيخُ(٢)، وسائرُ العلوم.

وكذا كتبُ الموارد، مثلُ:

* **كتاب «مَوارِد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد»**: للدكتور/ أكرم العُمَري.

* **وكتاب «ابن حجر العسقلاني، مصنفاته، ودراسةٌ في منهجه وموارده في كتابه الإصابة»**: للدكتور/ شاكر محمود عبدالمنعم.

* **وكتاب «موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق»**: للدكتور/ طلال بن سعود الدَّعْجاني.

وما شابهَهَا.

---

(١) **كتبُ الموارد**: هي الكتب التي تُعنىٰ بذكر المصادر التي اعتمد عليها عالمٌ مّا من العلماء، سواءٌ في تأليفِه كتابًا معينًا، أو في جميع مؤلَّفاتِه.

(٢) **التَّوْرِيخُ**: هو التاريخ، وقد سمّىٰ الحافظُ السخاويُّ كتابَه: «**الإعلان بالتَّوبِيخ، لمن ذمَّ أهلَ التَّورِيخ**».

لمعرفة المعالم الكبرىٰ الأساسيَّة لعلم مّا، أو مذهبٍ، أو فِرقةٍ، أو حركةٍ، يُرجع إلىٰ الدراسات التي تناولتْ أبرزَ الشخصيَّات المؤثّرة فيها.

فمثلًا؛ إذا ما أردنا معرفة المعالم الكبرىٰ **لفنّ العَرُوض**؛ فإننا نرجع إلىٰ الدراسات التي تناولتْ أبرزَ شخصيَّة فيه؛ وهو **الخليلُ بنُ أحمد الفراهيديّ** رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإذا ما أردنا معرفة ذلك في **البلاغة**؛ رجعنا إلىٰ الدراسات التي تناولتْ **عبد القاهر الجُرجاني** رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإذا أردنا معرفة ذلك في **الفقه الظاهري**؛ رجعنا إلىٰ الدراسات التي تناولتْ **ابنَ حزمٍ الأندلسيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإذا أردنا معرفة ذلك في **التأصيل لمنهج السلف**؛ رجعنا للدراسات التي تناولتْ **شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإذا أردنا معرفة ذلك في **علم الاجتماع**؛ رجعنا للدراسات التي تناولتْ **ابنَ خُلدون** رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهكذا في بقية الفنون والعلوم.



إذا أردتَ معرفةَ قوّةِ علمٍ مّا أو ضعفِه؛ فانظر مدىٰ تأثير ذلك العلم في العلوم الأخرىٰ، أو تأثُّره بها.

فإنْ كان من الصِّنْف الأول فهو عِلمٌ قويٌّ، وإن كان من الثاني فهو دونَ ذلك، وتتفاوتُ قوّتُه تبعًا لدرجات التأثُّر والتأثير.

والمرجعُ في هذا: الدراساتُ التي تُجْرِي الموازناتِ بين العلوم، وكذا الدراساتُ التي تبيّن المسائلَ المشتركةَ بين عِلمٍ وعِلمٍ[1].

فمِن العلوم القويّة التي أثّرت في غيرها من العلوم: علمُ مصطلح الحديث.

فقد ألّف الإمامُ السيوطيُّ كتابَ «المُزْهِر في علوم اللغة وأنواعها»، وبناهُ علىٰ علم مصطلح الحديث.

وكذا كتابُ «مُصطلَح التاريخ»؛ لأسد رُسْتم، فقد تكلَّم فيه عن علوم الحديث وأثَرِها في علم التاريخ، وكان يرىٰ أنه لا بدّ من تحكيم قواعد علوم الجرح والتعديل وعلوم الحديث التي وضعها المحدِّثون في الروايات التاريخيّة؛ لكي يتسنّىٰ معرفة ما هو صحيحٌ من الروايات؛ مما ليس بصحيحٍ[2].

---

(١) مثل: كتاب «المسائلُ المشتركةُ بين أصول الفقه وأصول الدين»: للدكتور/ محمد العروسي عبد القادر.
وكتاب «المسائل المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه وأثرها في التفسير» للدكتور/ فهد بن مبارك الوهْبي.
فهذه الكتبُ يتبيَّنُ من خلالها مدىٰ التأثُّر والتأثير بين العِلْميْن.

(٢) ولأهميّة كتابه «مصطلح التاريخ» فقد درّسه الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ لطلّابه قديمًا كما جاء في ترجمته، علىٰ الرُّغْم مِن أنَّ مؤلِّفَه نصرانيٌّ!

وكتابُ «الحديثُ النبويُّ الشريفُ وأثرُه في الدراسات اللغوية»؛ للدكتور/ محمد ضاري حمّادي.

وكتابُ «مصطلح الحديث وأثرُه علىٰ الدَّرْس اللغوي عند العرب» للدكتور/ شرف الدين علي الراجحي.



ينبغي الاهتمامُ بالكُتب التي تُؤصِّل للعلوم الإسلاميّة، وتُوثِّق مواردَها، وتدفع عنها الشُّكوكَ والشُّبهاتِ؛ ممّا يساهم في بثِّ الثّقة في نفوس طلّاب العلم والناشئة تجاه علومهم الإسلامية.

ومن المؤلَّفات في ذلك:

* كتابُ «**درء تعارض العقل والنقل**»: لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
* وكتابُ «**حُجّيّة السنّة**»: للعلّامة عبد الغني عبد الخالق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
* وكتابُ «**رسالةٌ في الطريقِ إلىٰ ثقافتِنا**»: للعلّامة محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
* وكتابُ «**المعرفةُ في الإسلام مصادرُها ومجالاتُها**»: للدكتور/ عبد الله بن محمد القرني.

وما شَاكَلَها.



مِن الأمور المهمّة في عمليّة القراءة؛ أنْ يُناقِشَ القارئُ ما يَقرأُ ويتفاعلَ معه.

بمعنىٰ أنْ يضعَ في ذهنه أسئلةً ويُحاولَ أنْ يجدَ لها حَلًّا في الكتاب المقروء؛ فإنّ هذا أدعىٰ إلىٰ التركيز فيما يقرأُ، كما أنه سبيلٌ لفهم أدقَّ للكتابِ المقروء.

لكنْ ينبغي أنْ تكونَ تلك التساؤلاتُ مُنضبطةً ومنطقيّةً، لا أنْ تكونَ مثلَ تساؤلاتِ عوَض بن نَصْر المِصْري!

فقد نقلوا عنه أنه أخذ كتابَ «**المُفصَّل**» للزمخشريِّ – وهو كتابٌ في النحو – فسأل بعضَ الجماعة عن قول الزمخشريِّ في أوله: «اللهَ أحمدُ»، لأيّ شيءٍ قال: «اللهَ أحمدُ»، وما قال: اللهُ يوسفُ! ولا اللهُ عيسىٰ! أو موسىٰ! أو غيرُ ذلك من الأسماء»؟!!

فحفِظَها عنه الطلّابُ، وصاروا يَسخرون منه ويَتطنَّزون به، ويَضعون علىٰ لسانه أسئلةً حمقاءَ كسؤالِه هذا!![1].



(١) انظر خبرَه في: أعيان العصر: للصفدي (٣/ ٧٠٦)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٣/ ١٩٩).
وقد استوفيتُ قصّته بتمامها مع توجيه كلام الزمخشريِّ في كتابي الإبداع العلمي (ص/ ١٥٤) من طبعة مكتبة دار المنهاج، فراجعْها إن شئت.

ينبغي أنْ تكونَ قراءةُ كتبِ العلمِ قراءةً مُبَرْمَجَةً(١).

بمعنىٰ أنْ يتّبعَ القارئُ في ذلك برنامجًا محدَّدًا ما أمكن، مسترشدًا في ذلك بتوجيهات المختصِّين من أساتيذَ وزملاءَ؛ حتىٰ لا يتطوَّحَ هنا وهناك، فيضيعَ وقتُه وجهدُه في قراءةِ كتبٍ ثانويّةٍ ليستْ أصيلةً في بابها، أو يَسقطَ في أَتُونِ كتبٍ ضارّةٍ تُشوّشُ فِكْرَه، وتُزلزلُ عَقْدَه.

ولعلمائِنا المتقدِّمين والمعاصِرين - أثابهم اللهُ - جُهودٌ مشكورةٌ في وضعِ قوائمَ مقترحةٍ لطلّاب العلم في ترتيب قراءة الكتب(٢).



(١) أفردتُ هذا العُنصُر بكتابٍ مستقلٍّ هو: «القراءةُ الـمُبَرْمَجَةُ: تَهْيِئَةٌ وتَطْبيقٌ»، وقد سبقتْ الإشارةُ إليه.

(٢) مِمّن قام بذلك من المتقدِّمين:

الإمامُ الشوكانيُّ، في كتابه «أدب الطلب ومنتهىٰ الأرب» - ط دار اليمامة - (ص/ ١٧٩) فما بعد، وقد قسّم فيه طبقاتِ طلّاب العلم إلىٰ أربع طبقات.

ومن المعاصرين ثُلّةٌ منهم:

العلّامةُ ابنُ عثيمين، في «مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين» (٢٦/ ٣٤١).

والأستاذ/ أحمد سالم، في كتابه البديع «السُّبل المرْضيّة لطلب العلوم الشرعيّة» - ط مركز تفكّر للبحوث والدراسات.

ولي نَشْرةٌ متداولَةٌ منذُ زمنٍ باسمِ: «مكتبة طالب العِلم»، وهي في مطاوي (المكتبة الشاملة)، كما أنها مرفوعةٌ علىٰ (الشنكبوتيّة) أيضًا.

مِن المهمّ العنايةُ بقراءة كتب الأدب؛ لأنها تُربِّي الـمَلَكَة، وتُحسِّنُ الذائِقة، وتَشْحذُ القَريحَة، وتُثْري الفِكْر، وتَبعثُ علىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم.

قال الإمامُ ابنُ عبد البرّ في مقدمة كتابه النفيس «بهجة المجالس»[(١)]:

«إن أولىٰ ما عُنيَ به الطالب، ورغِبَ فيه الراغب، وصَرفَ إليه العاقلُ هَمَّه، وأكَدَّ فيه عزمَه - بعد الوقوف علىٰ معاني السنن والكتاب - مطالعةُ فنون الآداب، وما اشتملت عليه وجوهُ الصواب، من أنواع الحِكَم التي تُحْيي النفسَ والقلب، وتَشْحذُ الذِّهنَ واللبّ، وتَبعثُ علىٰ المكارم، وتَنهىٰ عن الدنايا والمحارم.

ولا شيءَ أنظمُ لشَمْل ذلك كلِّه، وأجمعُ لفنونه، وأهدىٰ إلىٰ عيونه، وأعقلُ لشارِده، وأثقفُ لنادره؛ من تقييد الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والفصول الشريفة، والأخبار الظريفة، من حِكَم الحكماء، وكلام البلغاء العقلاء: من أئمة السلَف، وصالحي الخلَف، الذين امتثلوا في أفعالهم وأقوالهم، آدابَ التنزيل، ومعاني سننِ الرسول، ونوادر العرب وأمثالها، وأجوبتها ومقاطعها، ومباديها وفصولها، وما حَوَوْهُ من حِكَم العجَم، وسائر الأمم، ففي تقييد أخبارهم، وحفظ مذاهبهم، ما يبعث علىٰ امتثال طرقهم واحتذائها، واتّباع آثارهم واقتفائها».

وقال الأديبُ البليغُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ: «إنّ ما يُربِّي المَلَكَاتِ

---

(١) (١/ ٣٥ - ٣٦).

الأدبيةَ الصحيحةَ ويُقوِّمُها الإدمانُ، إدمانُ القراءة المتأنِّية المتدبِّرة لكتب الأدب الحرّة الأصيلة، والاستكثارُ من حفظ الشعر واللغات والأمثال، ومعرفةُ مواردها ومضاربها، والتنبّهُ لمواقع استعمالها من كلام البلغاء، من شعراء وخطباء وكتّاب، ثم ترويضُ القرائح والألسنة والأقلام علىٰ المحاذاة؛ ذلك أدنىٰ أنْ تَستحكِمَ الـمَلَكَةُ، وتنقادَ القريحةُ، فتجري الأقلامُ علىٰ سَدَاد، ويَمُدُّها الفكرُ من تلك المعاني بأمداد، وتُوضَع الكلماتُ في الجمل، في موضع اللآلئ من العِقْد، وما جاء حُسْنُ العِقْد منظومًا، إلا من حُسْنِه منثورًا، ثم تكونُ الحِكَم والأمثال والنُّكَت كفواصل الجُمان، في العقود الثِّمان»(١).

وقال أيضًا يُوصِي الطلّابَ: «لا تعتمدوا علىٰ حفظ المتون وحدَها، بل احفظوا كلَّ ما يُقوّي مادتَكم اللغويّة، ويُنمّي ثروتَكم الفكريّة، ويُغذّي مَلَكَتَكم البيانيّة»(٢).



(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٥٨٠).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٠٤).

ينبغـي الإكثـارُ مـن قـراءةِ سِـيَرِ القـرّاءِ الكبـارِ، والتأمُّـلِ في أحوالهم؛ كيفَ أنهم حصّلوا عُلومًا كثيرةً، وألَّفوا مؤلَّفاتٍ جليلةً؛ بسببِ انقطاعِهم للقراءةِ والبحثِ.

وهم - بحمدِ الله - كثيرٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، سواءً أكانوا من المتقدِّمين؛ مثل: الجاحظ، وابن الخشَّاب، وابن دقيق العيد، وابن تيمية، وابن السُّبكي، وابن حَجَر، والسيوطي.... وغيرهم.

أم من المتأخِّرين؛ مثل: العقّاد، ومحمد البشير الإبراهيمي، وعبد الحي الكتّاني، وعبد السلام هارون، ومحمود شاكر، وعلي الطنطاوي، والشرقاوي إقبال، وبكر أبو زيد.... وغيرهم.

وقد ذكرتُ في مقدّمةِ الكتابِ نَموذجَيْن منهم: قديمٍ، ومعاصرٍ، كما ذكرتُ في مطاويه طائفةً، فلا نُطِيلُ بذكرِ أخبارهم هنا[١].

فعلىٰ طالب العلم أنْ يَستكثرَ من قراءةِ أخبارهم وأحوالهم؛ لِيأْتَسِي بهم[٢].



(١) سأُفرِدُهم في مصنَّفٍ مستقلٍّ إن شاء اللهُ تعالىٰ، سمَّيْتُه: «معرفة القُرّاء الكِبار، علىٰ الطبقات والأعصار»!

(٢) أفضلُ كتابٍ رأيتُه في استقصاء نوادرِهم وأحوالِهم وأخبارهم مع الكتب: كتابُ «عُشّاق الكتب» للبحَّاثة الـمُجِيد: عبد الرحمن بن يوسف الفرحان، وفّقه الله.

ينبغي أنْ يُفرِّقَ القارئُ بين الأفكارِ الرئيسةِ[١] والأفكارِ الفرعيّةِ الواردةِ في الكتابِ المقروءِ.

وهذا أمرٌ مهمٌّ؛ لسببين:

الأول: أنّ هذا أدعىٰ لفهم الكتابِ والكاتِبِ؛ وذلك بالتركيزِ علىٰ جوهرِ البحث، وعدم تشتيتِ الذهنِ بين الأفكار الفرعيّة.

فلو أنّ كاتبًا مثلًا ألّف كتابًا عن علم النحو في الأندلس خلال فترةٍ معيّنةٍ، فإنه سيتطرّقُ في كتابه - ولا شكّ - إلىٰ الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تلك الحِقبةِ المعْنيَّةِ بالدرْس، كما أنه سيُترجِمُ للأعلام، ويُعرِّفُ بالأماكن فيها... إلخ، فهذه كلُّها أُمورٌ فرعيّةٌ ليستْ ذاتَ أهميّةٍ مؤثِّرةٍ في الموضوع المطروق، وعليه أنْ يُركِّزَ جهدَه علىٰ الأفكار والمسائل الرئيسة في الموضوع.

الثاني: اختصارُ الوقت؛ بحيثُ يستطيعُ أنْ يقرأَ عدّةَ كتبٍ في زمنٍ يسيرٍ، موازنةً بالنهجِ الآخَر. واللهُ أعلم.



(١) هذا هو الفصيحُ في هذه اللفظة وما شاكَلَها، وهو ألّا تزادَ فيها ياءُ النسَب؛ لعدم الـمُقتَضِي. وإنْ كان قد أجاز ذلك بعضُ اللغويين المعاصرين؛ حملًا للياءِ علىٰ المبالغة، أو أنها زائدةٌ للتأكيد. واللهُ أعلم. انظر: قُلْ ولا تَقُلْ: لمصطفىٰ جَوَاد (ص/ ١٣٤)، ومعجم الصواب اللغوي: لأحمد مختار عمر (٢/ ٩٤٥).

لا تَحتقِرْ شيئًا من الكتب مهما كان قَدْرُه، فقد يُوجَدُ في النهر ما لا يُوجدُ في البحر! وقد يُوجدُ في الخَبِيط(١) ما لا يُوجدُ في المحيط! والقاعدة: لا يخلو كتابٌ من فائدة!

قال ابنُ حزمٍ: «دعائمُ العلم مشهورةٌ مُستحْكِمةٌ، يُؤْثَرُ بها العلمُ علىٰ سائر أعراض الدنيا من اللّذات والمال والصَّوْت(٢). ثم قَصْدٌ إلىٰ عين العلم؛ لِيَخرجَ به عن جملة أشباه البهائم فقط، لا يَجعلُه مُكتَسَبَه ولا لِيُمدَحَ به، وذكاءٌ وفهمٌ وبحثٌ وذكرٌ وصبرٌ علىٰ كلِّ ذلك، والتعبُ فيه، وإنفاقُ المال عليه، والاستكثارُ من الكتب، **فلن يخلو كتابٌ من فائدةٍ** وزيادةِ علمٍ يَجدُها فيه إذا احتاج إليها»(٣).

وقال ابنُ الأزرق: «تَكْثِيرُ التواليفِ لمريدِها من طلبة الْعلم لَا يُقَال فِيه: إنه عائقٌ عَن التَّحْصِيل! بل هو كَفِيلٌ بكمالِهِ، **ومن ثَمَّ قال ابْنُ حزمٍ**: «الاستكثارُ من الْكتب من دعائم العلم؛ إِذْ لا يَخْلُو كتابٌ من فائدةٍ وَزِيَادَةِ علمٍ» وَقد كشف الْخَلِيلُ عن فائدةِ جَمْعِهَا وغاياتِه فقال: «أَقِلُّوا من الْكتب لِتحفظوا، وأكثِروا مِنْهَا لِتَعْلَمُوا»(٤).

---

(١) الخَبِيطُ: المَاءُ القَلِيلُ يَبْقَىٰ في الحَوْض. المحكم والمحيط الأعظم: لابن سِيده (٥/ ١٢٥).
ومنه قول المعرّي في اللزوميّات (٢/ ٩٩):

كأنّ دُنياكَ ماءُ حَوضٍ ... آخِرُهُ آجِنٌ خَبِيطُ

(٢) الصَّوْتُ والصَّاتُ والصِّيتُ: الذِّكْرُ الحَسَنُ (من حاشية المحقّق).
(٣) رسالة مراتب العلوم - رسائل ابن حزم - (٤/ ٧٧).
(٤) بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٣٥٤).

☜ **وقال ابنُ الجوزي:** «كانت هِمَمُ القُدَماء من العلماء عاليةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم، التي هي زُبدةُ أعمارهم؛ إلّا أن أكثرَ تصانيفهم دَثَرَتْ؛ لأنّ هِمَمَ الطلاب ضَعُفَتْ، فصاروا يَطلبون المختصراتِ، ولا يَنشطون للمطوَّلاتِ، ثم اقتصروا علىٰ ما يَدرسون به من بعضها، فدَثَرَتْ الكتبُ، ولم تُنسَخْ!

فسبيلُ طالب الكمال في طلب العلم الاطِّلاعُ علىٰ الكتب، التي قد تخلَّفتْ من المصنفات، فلْيُكثرْ من المطالعة؛ فإنه يرىٰ من علوم القوم، وعُلُوِّ هِمَمِهم ما يَشْحَذُ خاطرَه، ويُحرِّك عزيمتَه للجِدِّ، **وما يخلو كتابٌ من فائدة**»[1].



(١) صيد الخاطر (ص/ ٤٥٣).

يُستحسَنُ أنْ يستعينَ القارئُ بمشارِكٍ واحدٍ أو أكثرَ؛ لِيساعدَه على القراءة، ويُحمِّسَه لها.

وقد ابتدعَ بعضُ عُشّاقِ القراءةِ في هذا العصرِ في المواقع والمنتديات والمجموعات ما يُعرَفُ بالقراءةِ الجَماعيّة، بمعنىٰ أنْ يُحدَّدَ كتابٌ معيَّنٌ أو مجموعةُ كتبٍ، ثم تُقرأُ خلالَ يومٍ أو أُسبوعٍ مثلًا...

قلتُ: نِعْمَتِ البدعةُ هذه؛ لما فيها من بثّ روحِ التنافسِ بين أفرادِ المجموعة وتحفيزهم لقراءةِ عددٍ كبيرٍ من الكتب في زمنٍ وجيزٍ!





إنَّ الكتابَ الذي يُقرَأُ كالطعام الذي يُؤكَلُ، فطعامٌ يُعطِي آكلَه القوةَ والفَرَاهَةَ، وطعامٌ يُعطِي آكلَه الضَّعْفَ والهُزالَ!

محمد البشير الإبراهيمي



المُلْحَق

المُلْحَق

هـذه هـي المقالـةُ الفائقـةُ للشـيخ العلّامـة/ محمـد البشـير الإبراهيمـيّ (ت ١٣٨٥ هـ) التي كنّا قد وَعَدْنا بها في المقدِّمة. حيثُ ذكر فيها رَحِمَهُ اللَّهُ تجربتَه الثَّرِيَّةَ مع القراءة، لا سيّما قراءةَ الكتب الأدبيّة، حيثُ أرشده عَمُّه منذُ أنْ أتمَّ حفظَ القرآن في التاسعة من عمره! إلىٰ قراءة طائفةٍ كبيرةٍ منها!!

⇦ وقد نُشِرَتْ هذه المقالةُ في أوائل الخمسينيّات من القرن الماضي في صحيفة (الأهرام) المصريّة، ثمّ أُعيدَ نشرُها بعدَ ذلك ضِمنَ آثاره التي جُمِعتْ وطُبِعتْ في خمسِ مجلداتٍ، وقامتْ علىٰ نشرها دارُ الغرب الإسلامي ببيروت[١].

⇦ وقد قُمتُ بالترجمةِ لأعلامِ المقالةِ، غيرَ مُخْلٍ الترجمةَ من فوائدَ ولطائفَ للمترجَم، خلافًا لما جرتْ به عادةُ أكثرِ المحقّقين، من ذِكْرهم تراجمَ لا روحَ فيها!

كما قمتُ بالتعريفِ بالكتب غير المشهورة الواردةِ فيها؛ ترغيبًا في قراءتها، وطوَّلتُ الكلامَ علىٰ الكتب التي ثارتْ حولها إشكالاتٌ.

كما اعتنيْتُ بتَفْقِيطِ المقالة؛ لِتتّضحَ. وشَكْلِ الـمُشْكِلِ منها. ووَضْعِ علاماتِ الترقيم المناسِبةِ؛ لا سيّما علاماتِ التعجُّب (!) ولَعَمْري إنّ عجائبَ هذا القَرْمِ وعَمِّه فيها لا تَنْقَضي!!

☜ وإليكَ نصَّ المقالة:

---

(١) وهي في الجزء الرابع منها (ص/ ٣٧٢ - ٣٧٤).

كلمةٌ لصحيفة «الأهرام»
للشيخ/ محمد البشير الإبراهيميّ
(ت ١٣٨٥ هـ)

«أنا مُدمِنُ قراءةٍ من عهد الصغر، فقد بدأتُ قراءةَ الكتب وعمري تسعَ سنواتٍ! في السنة التي فرغتُ فيها من حِفظ القرآن!

⇦ وكان أستاذي - وهو عَمّي شقيقُ والدي الأصغر(١) - يتولّىٰ تربيتي وتوجيهي، ويأخذُني - مع حِفظِ القرآن - بحفظِ مختاراتٍ من الشعرِ العربيِّ البليغِ في معانيه، الفصيحِ في ألفاظِه، الغريبِ في فهمِه؛ فما حفظتُ القرآنَ حتىٰ كنتُ أحفظُ معه بِضْعةَ الألفِ بيتٍ من الشعر ما بين أبياتٍ مُفردةٍ ومُقَطَّعٍ، مع فهمِ المفرداتِ!!

⇦ وأعانني علىٰ الفهم ما صحبَ حِفظي للقرآن من حِفظ الكثير من الألفاظ اللُّغوية الفصيحة من كتاب: «كفاية المتحفِّظ»(٢) ....

---

(١) عَمُّه: هو الشيخ محمد المكِّي الإبراهيمي.
قال عنه المؤلفُ: «ويُشرِفُ علينا إشرافًا عاليًا عالمُ البيتِ بل الوطنِ كلّه في ذلك الزمان، عمِّي شقيقُ والدي الأصغر الشيخ محمد المكِّي الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان حاملَ لواء الفنون العربية غيرُ مدافَع، من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها، أخذ كلَّ ذلك عن البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليمنا، منهم العلّامةُ المتقنُ الشيخُ ربيعُ قري اليعلاوي، ومنهم العلّامةُ الشيخُ محمدُ أبو القاسم البُوجْلِيلِي، ومنهم العلّامةُ الشيخُ محمدُ أبو جمعة القُلِّي، خاتمة المتبحّرين في العربية والفقه». آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٥/ ٢٧٣).
(٢) كتاب «كفاية المتحفّظ ونهاية المتلفّظ»: لإبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن الأجدابي. كتابٌ مختصرٌ في مجلدٍ واحدٍ.
=

.... للأَجْـــدابي[١]، و«الفصـــيح»[٢] ....

=

وهو أحدُ معاجم المعاني، وهي: التي تبدأ بذكر المعنىٰ ثم تبيّن اللفظَ المناسبَ له، ويتمّ ترتيبُ المعاني فيها علىٰ أبوابٍ. ومِن أشهرها وأكبرها كتاب «**المخصَّص**» لابن سيده المرسي المتوفىٰ سنة ٤٨٥هـ.

والكتابُ ذكره ياقوت في معجم الأدباء (١/ ٥١) وقال عنه: «صغير الحجم كثير النفع».

وقال عنه القِفْطي: «صنّف في اللغة مقدمةً لطيفةً سماها «**كفاية المتحفِّظ**» يشتغل بها الناسُ في المغرب ومصر».

وقال ابنُ الطيّب الفاسي: «اعتنىٰ بهذا المختصر جمعٌ من الأئمة المقتَدَىٰ بهم واعتمدوه. وأكثَرَ من النقل عنه... الفيوميُّ في كتابه «**المصباح المنير**»... والدميريُّ في «**حياة الحيوان**» وغيرُهما. وعَدَلُوه بالمصنفات الكبار كالصّحاح والتهذيب والمجمل ونحوها. وربما اختار كلامَه في المصباح عليهم أحيانًا... وشهرتُه بين أهل الفن كافيةٌ».

ومدحه الأديبُ الفقيهُ عليُّ بنُ صالح العدوي بقوله:

مَــنْ كــان يطلــبُ في الغريــب وسـيلةً ... مـــن شـــاعرٍ أو كاتـــبٍ مـــتلفِّظِ

أو كـــان يبغـــي في الكـــلام بلاغـــةً ... فلـــيحفظنَّ «كفايـــةَ المـــتحفِّظِ»

وقد طُبع الكتابُ في دار اقرأ للطباعة والنشر والترجمة – طرابلس، الجماهيرية الليبية- بتحقيق السائح علي حسين. ١٩٨٩م، وأشار محقِّقُه أن الكتاب له طبعةٌ قديمةٌ في القاهرة سنة ١٢٨٧هـ.

ثم صدر الكتابُ في نشرة جديدة بتحقيق بلال الخليلي- دار الذخائر- بالقاهرة ٢٠١٧م.

انظر: مقدمة محقِّق الكتاب، والبحث اللغوي عند العرب: للدكتور/ أحمد مختار عمر (ص/ ٢٩٤).

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي الأَجْدَابي، لغويٌّ بارعٌ، من أهل طرابلس الغرب. نسبته إلىٰ أجدابية، له كتبٌ منها: «كفاية المتحفّظ»، ورسالة في «الحَوَل» - وكان أحول - وغير ذلك. توفي سنة (٤٧٠ هـ). انظر: معجم الأدباء (١/ ٥١)، وإنباه الرواه (١/ ١٩٣).

(٢) كتاب «الفصيح» لأبي العباس ثعلب، كتابٌ اختار فيه مصنِّفُه فصيحَ الكلام، ممّا يجرىٰ في
=

.... لثعلب[(١)]، و«الألفاظ الكتابية»[(٢)] للهمداني[(٣)]![(٤)].

=

كلام الناس وكتبهم. منه ما فيه لغةٌ واحدةٌ والناسُ علىٰ خلافها، فيُخبر بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فيختار أفصحَهن، ومنه ما فيه لغتان كثرتا واستعملتا، فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرىٰ، فأخبر بهما، وألفه أبوابًا من ذلك.

والكتابُ مطبوعٌ في مجلدٍ واحدٍ، صدر عن دار المعارف بمصر، بتحقيق الدكتور عاطف مدكور.

(١) هو أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن زيد الشيباني البغدادي العلّامة، المحدِّث، إمام النحو، ولد سنة مائتين، قال الخطيب: ثقة مشهور بالحفظ. وقال المبرِّد: أعلم الكوفيين ثعلب. توفي سنة (٢٩١هـ).

انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٤٤٨)، ومعجم الأدباء (٢/ ٥٣٦)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٥).

(٢) كتاب «الألفاظ الكتابية»، ويقال له أيضًا: «ألفاظ الكتّاب» مختصرٌ نفيسٌ، جمع فيه مصنفُه الكلماتِ والجملَ المترادفةَ المعنىٰ الواردةَ في مصنفات أشهر علماء عصر الزَّهْو؛ ولذا فإنّ فائدتَه عظيمةٌ، وقد عُني جماعةٌ بشرح كتابه هذا.

قال فيه الصاحب بن عباد: «لو أدركتُ عبدَ الرحمن مصنِّفَ كتاب» الألفاظ «لأمرتُ بقطع لسانه ويده! فسئل عن سبب ذلك، فقال: لأنه جمع شذورَ العربية الجَزْلة المعروفة في أوراقٍ يسيرةٍ، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب. ورفع عن المتأدِّبين تعبَ الدروس والحفظ الكثير، والمطالعة الدائمة».

وقد طُبع الكتابُ في مجلدٍ واحدٍ عدّةَ طبعاتٍ، كان أولها سنةَ (١٨٨٥م)، ومنها طبعةٌ بتحقيق: إميل بديع يعقوب.

انظر: تاريخ الإسلام (٧/ ٣٨٨)، واكتفاء القنوع بما هو مطبوع: لفانديك (ص/ ٣١٧)، والأعلام: للزركلي (٣/ ٣٢١).

(٣) هو عبد الرحمن بن عيسىٰ بن حماد، أبو الحسن، الهمذاني،كان أديبًا فاضلًا أخباريًّا، وكان كاتِبَ رسائل الأمير أبي دلف العجلي -أمير المعتضد علىٰ همذان-، اشتهر بكتابه «**الألفاظ الكتابية**» كما سبق، توفي سنة (٣٢٠هـ). انظر: إنباه الرواة: للقفطي (٢/ ١٦٦)، والوافي بالوفيات: للصفدي (١٨/ ١٢٧).

(٤) وقال المؤلفُ أيضًا في موضعٍ آخرَ: «أحسنُ كتب الدراسة للصِّغار هما: «كفاية المتحفِّظ»، و«الألفاظ الكتابية»، يبدأ التلميذ في معرفة أسماء أعضاء جسمه في اللغة الفصيحة ومعرفة

=

⇦ **من ذلك الحينِ** شُغفتُ بالقراءة، وكان عَمّي يُنير لي الطريقَ، ويسايرني من إرشاده في كل داجية كوكبٍ وفي كل معضلةٍ تعترضني شُعاعٌ هادٍ، فيختارُ لي ما أقرأُ؛ لتستقيمَ مَلَكَتي من الصِّغر!

⇦ **وقد وجّهني أولَ ما وجّهني** إلىٰ رسائل بلغاء الأندلس وأشعار شعرائها، فعكفتُ- زيادةً علىٰ دروس الدين والقواعد- علىٰ قراءةِ الموجودِ من رسائلِ: **أبي عامر بن شُهَيْد**[١]، **وابنِ بُرْدٍ**[٢]، ....

= ما هو منسوب إليها من الأعمال، وكل ما هو متصل بها، ثم يتدرَّج إلىٰ معرفة الأشياء المتصلة به مما يقع تحت نظره ويدخل في تصرفاته اليومية، فلا ينتهي من هذه المرحلة إلا وهو حافظٌ لجزءٍ كبيرٍ من اللغة، ومحسنٌ للتصرُّف فيه من دراسته للألفاظ الكتابية للهمداني... إذ هما من أثمن ما ترك لنا سلفُنا من الكتب الموضوعة لتربية ملكة اللغة العربية في الصِّغار، وتقرّب انطباعَهم علىٰ لغتهم من طريقٍ سهلٍ طبيعيٍّ لا عِوج فيه». آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٥/ ٢٦٤).

◆ **وقال أيضًا**: «وفي عنفوان هذه الفترة كنت حفظتُ بإرشاد عمِّي كتابَ «**كفاية المتحفِّظ**» للأجدابي الطرابلسي، وكتابَ «**الألفاظ الكتابية**» للهمداني، وكتابَ «**الفصيح**» لثعلب، وكتابَ «**إصلاح المنطق**» ليعقوب السِّكِّيت، وهذه الكتبُ الأربعةُ هي التي كان لها معظمُ الأثر في ملكتي اللغوية». المرجع نفسه (٥/ ٢٧٤).

(١) **هو** العلّامةُ، البليغُ، جاحظُ وقته، أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن مروان بن أحمد بن شُهَيد الأشجعي، القرطبي، الشاعر.كان حامل لواء النظم والنثر بالأندلس، وله ترسُّلٌ فائقٌ، وتواليفُ أنيقةُ الجِدِّ، مطبوعةُ الهزْل، منها: كتاب «**جُؤنة عطار**».

➥ **قال عنه صديقُه ابنُ حزم**: «ولنا من البلغاء أبو عامر، له من التصرُّف في وجوه البلاغة وشِعابها مقدارٌ ينطق فيه بلسان مركَّبٍ من عمروٍ - يعني الجاحظ - وسهلٍ - يعني ابن هارون -»، توفي سنة (٤٢٦)هـ.

انظر: معجم الأدباء (١/ ٣٥٨)، ووفيات الأعيان (١/ ١١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٠١).

(٢) **هو** أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن بُرْد؛ شاعرٌ أندلسيٌّ، من بلغاء الكتاب. =

.... وابنِ أبي الخِصَال[(١)]، وأبي المطرِّف بن عَمِيْرَة[(٢)]، ولسانِ الدين بنِ الخطيب[(٣)] ....

=

كان ذا حظٍّ وافرٍ من البلاغة والأدب والشعر، رئيسًا مقدَّمًا في الدولة العامرية.

له رسالة في «**المفاخرة بين السيف والقلم**»، قال الحُميدي: هو أول من سبق إلىٰ القول في ذلك بالأندلس. توفي بعد (٤٤٠ هـ).

انظر: جذوة المقتبس: للحميدي (ص/ ١١٩)، والوافي بالوفيات (٦/ ١٦٤)، والأعلام: للزركلي (١/ ٢١٣).

(١) هو أبو عبد الله محمد بن مسعود بن طيّب بن فرج ابن أبي الخِصَال الغافقي،: وزير أندلسي، متقدم في اللغة والأدب والكتابة والخطابة والشعر، كان متفننًا في الآداب، واللغات، بليغًا أخباريًّا، وتفقّه وتأدّب حتىٰ قيل: لم ينطلق اسمُ كاتب بالأندلس علىٰ مثل ابن أَبي الخِصَال. له تواليف حسان، منها «مجموعة ترسُّله وشعره» وغير ذلك، توفي سنة (٥٤٠ هـ).

انظر: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: للضبّي (ص/ ١٣١)، وتاريخ الإسلام (١١/ ٧٣٤)، والأعلام: للزركلي (٧/ ٩٥).

(٢) هو أبو المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عَميرة المخزومي القاضي: سكن بلنسية، كان إمامًا عالمًا بالفقه مالكيًا عالمًا بالمعقولات والنحو واللغة والأدب والطب متبحرًا في التاريخ والأخبار، ناظمًا ناثرًا، ثاني بديع الزمان الهمذاني. توفي سنة (٦٥٨ هـ).

انظر: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: للغبريني (ص/ ٢٩٨)، وتحفة القادم: للقضاعي (ص/ ٢٠٩)، والوافي بالوفيات (٧/ ٨٩)، وبغية الوعاة (١/ ٣١٩).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، وزيرٌ مؤرخٌ أديبٌ نبيلٌ، كان يُلقَّب بذي الوزارتين: القلم والسيف، ويقال له (ذو العُمْرين)! لاشتغاله بالتصنيف في ليله، وبتدبير المملكة في نهاره. وعلىٰ اسْمه صنف المقَّري كتابَه العظيم «**نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**».

=

.... من كتابه «ريحانة الكُتَّاب»(١).

والموجودِ من أشعار: ابنِ زيدون(٢)، ....

=

مؤلفاته تقع في نحو ستين كتابا، منها: «الإحاطة في تاريخ غرناطة»، و«الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام»، و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، و«رقم الحلل في نظم الدول»، و«نُفاضة الجراب» في أخبار الأندلس، و«معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار»، وغيرها.

قُتلَ رَحِمَهُ اللَّهُ مخنوقًا في سِجنه سنة (٧٧٦ هـ).

انظر: إنباء الغمر (١/ ١٢٩- ١٣٣)، والدّرر الكامنة (٣/ ٤٦٩)، وشذرات الذهب (٨/ ٤٢٢)، والأعلام: للزركلي (٦/ ٢٣٥).

(١) اسمه «ريحانة الكُتَّاب ونُجْعَة المنتاب»، وهو كتاب أدبيٌّ موسوعيٌّ، جمع فيه مصنفُه أغراضًا شتّىٰ، من خطبٍ ومقاماتٍ ومخاطباتٍ، وغير ذلك.

فبدأ بالتحميدات التي صَدَّر بها بعضَ مؤلفاته، ثم الخطب التي قيلت في الصدقات والبيعات، ثم في الفتوحات، ثم في التهاني والتعازي والشفاعات.... إلخ.

كما ضمّنه قسمًا لتراجم الأدباء والفصحاء والكتّاب والخطباء والوزراء، وغير ذلك.

قال المقّري: «وبالجملة فهو كتابٌ مفردٌ في بابه».

والكتاب نشرته مكتبة الخانجي - القاهرة - عام ١٩٨٠م، بتحقيق: محمد عبد الله عنان.

كما طُبع بعضُ أجزائه مستقلًّا.

انظر: نفح الطيب: للمقّري (٧/ ٩٩)، وإيضاح المكنون: للباباني (١/ ٦٠٥)، ومقدمة محقّق الكتاب.

(٢) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي، ولي الوزارة، وهو صاحب منثور ومنظوم، كان يُلقّب بـ (بحتريّ المغرب)، وله ديوان شعر مطبوع.

وطبقتُه في النثر رفيعةٌ أيضًا، فهو صاحب (**رسالة ابن زيدون**) التهكّمية، بعث بها عن لسان ولّادة بنت المستكفي إلىٰ ابن عبدوس، وكان يُزاحمه علىٰ حبّ ولّادة! وله رسالةٌ وجّهها إلىٰ ابن جهور طُبعت مع سيرة حياته في كوبنهاغن. توفي سنة (٤٦٣ هـ).

انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسّام (١/ ٣٣٦)، ووفيات الأعيان

=

.... وابنِ عمّارٍ[(١)]، وابنِ شُهَيْدٍ، وابنِ دَرَّاجٍ القَسْطَلّي[(٢)]، وابنِ خفاجةَ[(٣)]!

=

(١/ ١٣٩)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٤٠)، والأعلام للزركلي (١/ ١٥٨).

(١) هو أبو بكر محمد بن عمّار الأندلسي المهري، شاعر الأندلس، ذو الوزارتين، كان هو وابن زيدون كَفَرَسَيْ رِهَان، جعله المعتمد بن عباد (صاحب غرب الأندلس) وزيرًا له ومشيرًا وجليسًا، ثم خلع عليه خاتمَ الملك ولقّبه بالإمارة، واستنابه علىٰ (مرسية) فعصىٰ بها وتملّكها، ونُسب إليه البيتان المشهوران:

مما يُزهِّدني في أرض أندلسٍ ... أسماءُ معتمدٍ فيها ومعتضدِ

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعِها ... كالهِرِّ يَحكي انتفاخًا صَولةَ الأسدِ!

فتلطّف المعتمدُ في الحيلة معه إلىٰ أن وقع في يده، فذبحه صبرًا بإشبيليّة سنة (٤٧٧ هـ).

انظر: بغية الملتمس (ص/ ١١٣)، ووفيات الأعيان (٤/ ٤٢٥)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٨٢)، والأعلام: للزركلي (٦/ ٣١٠).

(٢) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسىٰ بن درّاج القسطلّي الأندلسي، الشاعر الكاتب؛ كان كاتبَ المنصور بن أبي عامر وشاعرَه.

وهو معدودٌ في الأندلسيين من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين.

قال عنه الثعالبيّ: «كان بصِقع الأندلس كالمتنبي بصِقْع الشام، وهو أحد الفحول، وكان يُجيد ما ينظم ويقول»، وعقد له ابنُ بسّام في «الذخيرة» فصلًا مطوّلًا أورد فيه نماذجَ كثيرةً من رسائله وأشعاره، توفي سنة (٤٢١ هـ).

انظر: يتيمة الدهر (٢/ ١١٩)، ووفيات الأعيان (١/ ١٣٥)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسام الشنتريني (١/ ٥٩)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٦٥).

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي شاعر وقته، له ديوانٌ مشهورٌ، غلب علىٰ شعره الغزلُ ووصفُ الرياض ومناظر الطبيعة، ولم يتعرَّض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم علىٰ الأدب!

قال ابنُ خلكان: ومِن شعره في عشيّة أُنسٍ، وقد أبدع فيه:

وعَشِيٍّ أُنسٍ أضجعتْني نَشْوةٌ ... فيه، تُمهِّدُ مَضجَعي وتُدَمِّثُ

=

وبعضُ هذه الرسائل كانتْ مخطوطةً في مكتبة أسلافي، وبعضُها نَجِدُه في الكتب المؤلَّفة في تاريخ العلماء والأدباء بالأندلس؛ مثل: «نفح الطيب»[(١)].

=

خَلَعَــتْ عَلــيَّ بــه الأراكــةُ ظِلَّهــا والغُصْــنُ يُصْــغِي، والحَمَــامُ يُحــدِّثُ

والشــمسُ تَجْــنحُ للغُــروبِ مَريضــةً والرَّعْــدُ يَرقِــي، والغَمامَــةُ تَنْفُــثُ!

توفي سنة (٥٣٣ هـ).

انظر: قلائد العِقيان: للفتح بن خاقان (ص/ ٢٣٠)، ووفيات الأعيان (١/ ٥٦)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٦/ ٥٤١).

(١) اسمُه الكاملُ «نَفحُ الطيب، من غُصن الأندلس الرَّطيب، وذِكْرُ وَزيرِها لسانِ الدين ابنِ الخطيب» – على عادة المغاربة والأندلسيّين في تطويل أسماء الكتب! – ومؤلفُه هو المؤرخُ العلّامةُ الأديبُ: أحمدُ بنُ محمد بن أحمد بن يحيىٰ، أبو العباس المقَّري التلمساني.

يُعدُّ الكتابُ بحقٍّ موسوعةً تاريخيةً وأدبيةً نفيسةً، ويذكر المصنفُ في مقدمة كتابه (١/ ٧٠) عن سبب تأليفه أنه كان في دمشق يجالس الأعيان ولاسيما أحمد الشاهيني فيتجاذبون الكلام، قال: «فصرتُ أُورِدُ من بدائع بلغائها (الأندلس) ما يجري علىٰ لساني، من الفيض الرحماني، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني، صبَّ اللهُ عليه شآبيبَ رحماه وبلَّغه من رضوانه الأماني، ما تُثيره المناسبةُ وتقتضيه، وتميل إليه الطباعُ السليمةُ وترتضيه... إذ هو فارس النظم والنثر في ذلك العصر... فلما تكرّر ذلك غيرَ مرةٍ علىٰ أسماعهم، لهجوا به دون غيره، حتىٰ صار كأنه كلمةَ إجماعهم، وعَلق بقلوبهم، وأضحىٰ منتهىٰ مطلوبهم، ومُنيةَ آمالهم وأطماعهم، وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونَه، ويعترفون ببراعته ويستحسنونَه، ويستنشقون من أزهاره كل ذاكٍ».

ثم يذكر أسباب إقدامه علىٰ تأليف الكتاب، ولعل أهمها إصرار أحمد الشاهيني علىٰ تأليف هذا الكتاب في بديع ما أنتجته قريحةُ لسان الدين بن الخطيب، فاستجاب المقَّريُّ لذلك وأتمَّ كتابه سنة (١٠٣٩ هـ). وقسّمه إلىٰ قسمين، يتألف كلٌّ منهما من ثمانية أبواب. وتعرّض في المقدمة إلىٰ تاريخ حياته وتاريخ تأليف الكتاب ووضع القسم الأول فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار. والقسم الثاني في التعريف بلسان الدين بن الخطيب.

=

وقد كرَّرتُ تلكَ الرسائلَ والدواوينَ مراتٍ متعدِّدةً كِدْتُ أحفظُ مُعظمَها!

وكان عَمِّي يَتعصّبُ للأدبِ الأندلسيِّ، ويُبْدِي ويُعيدُ في استحسانِهِ، ويَعدُّه أقربَ لمزاجِنا وأكثرَ ملاءمةً مع روحانيّتِنا وعواطِفِنا.

⇦ ولما بلغتُ من العمر أربعَ عشْرةَ سنةً لحِقَ عمّي بربّه، وكان قبلَ وفاته بسنتينِ أو ثلاثٍ وجّهني لقراءة كتب المشارقة التي تجمع بين جزالة التركيب ووضوح المعاني، كـ «البيان والتبيين»[(١)]، و«البخلاء»[(٢)]، ....

=

وصدر الكتاب عن دار صادر - بيروت - في ثمانية أجزاء، بتحقيق الدكتور: إحسان عباس رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) كتاب «البيان والتبيين» آخرُ كتب الجاحظ تأليفًا، وأحدُ أركان الأدب العربي.

قال ابنُ خلدون: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنَّ أصولَ هذا الفنّ (الأدب) وأركانَه أربعةُ دواوين وهي: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، وكتاب «الكامل» للمبرِّد، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب «النوادر» لأبي علي القالي البغدادي. وما سوىٰ هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروعٌ عنها» المقدمة (ص/ ٦٣٢).

وقد بدأ الجاحظُ كتابَه بالحديثِ عن عيوبِ البيانِ، ثم البيانِ وحدِّه وأدواتِه، ثم البلاغةِ وحدِّها وتراجمِ البلغاء، وغيرِ ذلك، وختمه بأحاديث ورسائل ونصائح متفرّقة.

كما كشف فيه الجاحظُ عن سِحْر البيان العربي في مجاليْ الكتابة والخطابة في حديثه المستفيض عن فرسان القلم واللسان، وتصدّىٰ فيه لأولىٰ حركات الشعوبية، مفنِّدًا آراءَ دعاتها، مزيِّفًا كلَّ شبهاتها.

وقد طُبع الكتاب مراتٍ كثيرةً، أجلُّها طبعةُ المحقِّق الكبير: عبد السلام هارون رَحِمَهُ اللَّهُ، وكانت الأولىٰ عام ١٩٤٧م مع مقدمةٍ جليلةٍ عن الكتاب ومكانته العلمية.

(٢) كتابُ «البخلاء» من كتب الجاحظ التي تمثِّل روحَه الساخرةَ وأسلوبَه المرِحَ الفَكِهَ خيرَ تمثيل.

جمع فيه أخبارَ البخلاء والمبخَّلين والمقتصدين في عصره وما قبله، من أهل البصرة وخراسان بنوعٍ خاصٍّ، فصوَّر حالاتِهم كما رآها أو اتصل به خبرُها، مُتندِّرًا بأحاديثِهم وحُجَجِهم - ولذا

=

.... و«**الحيوان**»[(١)]

=

سمَّاه في الحيوان ١/ ٤: «**احتجاجات البخلاء**» -، مُستطردًا إلىٰ المناظرات الكثيرة حول البخل والكرم والضيافة، وصَدَّره برسالة سهل بن هارون التي تُعتبر أبرزَ مراجع الكتاب، إضافةً إلىٰ مُلَح الحزامي، واحتجاج الكِنْدي الفيلسوف، وكلام ابن غزوان، وخطبة الحارثي، وكلِّ ما حضره من أعاجيبهم وأعاجيب غيرهم.

طُبع الكتابُ مراتٍ كثيرةً، أهمُّها تلك التي صدرت عن دار الكاتب المصري بالقاهرة سنة ١٩٤٨م، بتحقيق: طه الحاجري، وقد صدَّره بمقدمةٍ تحليليةٍ طويلةٍ عن الكتاب وأسلوبه ومزاياه ومآخذه، وزوّده بعددٍ كبيرٍ من الفهارس.

(١) **كتاب «الحيوان»** أَجَلُّ كتب الجاحظ وأضخمُها، وأولُ موسوعةٍ من نوعها في تاريخ العرب.

⬅ ألّفه الجاحظُ وهو في السنِّ العاليةِ والفالَجِ الشديدِ، وذلك بعد مقتل المتوكِّل سنة (٢٤٧هـ) وأهداه للوزير محمد بن عبد الملك الزيات.

وقد قدّم له الجاحظُ بمقدمةٍ مُسهَبةٍ في فضل الكتاب وفنّ الكتابة وأسرار التأليف، ضمَّنها فصولًا طويلةً في الدفاع عن كتبه ورسائله بما في ذلك كتاب «**الحيوان**»، فجاءتْ في فنّ الكتابة وتاريخ الكتاب، بمثابة مقدمة ابن خلدون في علم التاريخ!

وسماه «الحيوان»؛ لأنه مبنيٌّ - كما يقول - علىٰ تتبّع ما في حياة الحيوان من الحُجَج علىٰ حكمة الله العجيبة وقدرته النادرة.

⬅ **وقد عرَّف كتابَه هذا بقوله:** «هذا كتابٌ تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العربُ والعجم، لأنه وإنْ كان عربيًّا أعرابيًّا، وإسلاميًّا جماعيًّا، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين عِلم الكتاب والسنّة، وبين وِجدانَ الحاسّة. وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيانُ كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتكُ كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعبُ ذو اللهو كما يشتهيه الـمُجِدّ ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبيُّ كما يشتهيه الفَطِن». (١/ ١١).

طُبع كتابُ الحيوان أولَ مرةٍ في القاهرة سنة (١٩٠٥م) عن المطبعة الحميدية، ثم سنة (١٩٠٧م) عن مطبعة السعادة، بتحقيق: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، ثم حقّقه العلّامة عبد السلام هارون في سبع مجلدات وصدر عن مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة (١٩٤٥م)، ثم أعاد طبعه سنة (١٩٦٥م).

.... للجاحظ[١]، و«الأغاني»[٢]

(١) هو عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ، أحدُ شيوخ المعتزلة، أخباريٌّ علامةٌ، صاحبُ فنونٍ وأدبٍ باهرٍ وذكاءٍ بيّن. ومصنفاتُه في غاية الإبداع.
كان من أهل البصرة، وقدم بغداد، فأقام بها مدةً، توفي سنة (٢٥٥هـ).
انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ١٢٤)، ومعجم الأدباء (٥/ ٢١٠١)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٥٣٠).

(٢) كتاب «الأغاني» موسوعة أدبية شعرية تاريخية، ألّفه أبو الفرج الأصفهاني المتوفىٰ عام (٣٥٦هـ) في عهد آل بُوَيْه. واستغرق تأليفُه زُهاءَ خمسين عامًا!
وَمادّتُه تقوم علىٰ جمع المؤلف للأغاني المتميّزة - التي يُسمّيها أصواتًا - في عصره والعصور السابقة عليه، مع ذكر طرائق الغناء فيها. وهي عبارةٌ عن ثلاثِ أغانٍ اختارها المغنِّي إبراهيم الموصلي للخليفة الواثق. ثم مئة أغنية أخرىٰ من اختيار المغنِّي نفسِه. ثم أخبار مَن لحّنوا الأغاني من الخلفاء وأقاربهم. ثم أغانٍ من اختيار الإصفهانيِّ نفسِه.
ثم يُتبِع ذلك بشروحٍ وتعليقاتٍ لما تحويه تلك الأصواتُ من أشعارٍ وإشاراتٍ، وعلىٰ أيّ البحور هي، وكيفيةَ غنائها.
وقد تكلم عن الغناء منذ الجاهلية إلىٰ عصر المعتضد بالله المتوفىٰ سنة (٢٨٩هـ) وسكت عما بعد ذلك؛ وكأنه أراد رضا آل بُوَيْه!
وقد أرّخ فيه الأصفهانيُّ لأكثر الشعراء والأدباء قبله، وذكر طرفًا من أخبارهم، ومختاراتٍ من أحاسن أشعارهم، كما ذكر أخبار الملوك والخلفاء وما دار بينهم وبين الشعراء في بلاطهم، وغير ذلك، كلُّ ذلك بالأسانيد إليهم، فهو من كتب الأدب المسنَدَة، لكنْ قال الحافظ الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٥/ ١٥١): «يأتي بأعاجيبَ بحدثنا وأخبرنا!».
والكتابُ قَيّمٌ من الناحية الأدبيّة، فقد أثنىٰ عليه طائفةٌ من العلماء والأدباء من هذه الحيثيّة. حتىٰ قال ابنُ خلدون: «ألّف القاضي أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو، كتابَه في الأغاني،جمع فيه أخبارَ العرب وأشعارَهم وأنسابَهم وأيامَهم ودولَهم. وجعل مبناه علىٰ الغناء في المائة صوتٍ التي اختارها المغنُّون للرشيد، فاستوعب فيه ذلك أتمَّ استيعابٍ وأوفاه. ولَعمري إنه ديوانُ العرب وجامعُ أشتات المحاسن التي سلفتْ لهم، في كلّ فنٍّ من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يُعدَلُ به كتابٌ في ذلك فيما نعلمه،
=

وهو الغايةُ التي يسمو إليها الأديبُ ويقف عندها، وأنَّىٰ له بها». المقدمة (ص/ ٦٣٢).
ولعلّ هذا هو قَصْدُ الشيخ الإبراهيمي في مَدْحه الكتابَ كما سيأتي في آخر مقالته هذه.
إلّا أنّ الكتابَ لا يُوثَقُ به من الناحية التاريخيّة والأخلاقيّة، فقد اشتمل الكتابُ علىٰ كثيرٍ من الأخبار المختَلَقَة المكذوبة، والمجون، والسُّخْف، وتمجيد الشعوبيّة، والكثير من الطامّات!! ولذا حذّر منه جمعٌ من العلماء.
قال الخطيبُ البغدادي: «حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن طاطبا العلوي، قال: سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختي يقول: كان أبو الفرج الأصفهاني أكذبَ الناس، كان يدخل سوقَ الورّاقين وهي عامرةٌ والدكاكينُ مملوءةٌ بالكتب، فيشتري شيئًا كثيرًا من الصحف ويحملها إلىٰ بيته، ثم تكون رواياتُه كلُّها منها». تاريخ بغداد (١١/ ٣٩٨).
وقال ابنُ الجوزي: «كان يتشيّع، ومثلُه لا يُوثَق بروايته؛ فإنه يصرِّح في كتبه بما يُوجِب عليه الفِسْق، ويُهوِّن شربَ الخمر، وربما حكىٰ ذلك عن نفسه، ومَنْ تأمّل كتابَ «الأغاني» رأىٰ فيه كلَّ قبيحٍ ومنكرٍ». المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٤/ ١٨٥).
وقال الحافظُ الذهبي: «رأيت شيخَنا ابنَ تيمية يضعِّفُه، ويتّهمُه في نقله، ويَستَهْوِلُ ما يأتي به». تاريخ الإسلام (٢٦/ ١٤٤).
وقال الأستاذ شوقي أبو خليل: «مَنْ يقرأ «الأغاني» يرىٰ حياةَ العباسيين لَهوًا ومُجونًا وغِناءً وشَرابًا.. وهذا يناسب المؤلِّفَ وخيالَه وحياتَه، ومَن يرجع إلىٰ كتب التاريخ الصحيحة يجد صورةً أخرىٰ فيها علمٌ وجهادٌ وأدبٌ.. فكتابُ «الأغاني» ليس كتابَ تأريخ يُحتجُّ به». موضوعيّة فِيلِيب حِتّي في كتابه «تاريخ العرب المطوَّل» (ص/ ١٨٧)، ط دار الفكر، ط١، ١٤٠٦ هـ.
وألّف الشاعرُ العراقيُّ وليدُ الأعظمي في نقده كتابَ: «السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني» صدر عن مطبعة معروف - بغداد - عام (٢٠٠٠م)، أجاد فيه غايةَ الإجادة، وبيّن فيه زيفَ أكاذيبِه وبطلانَ ادعاءاتِه، وساق له عددًا كبيرًا من المخازي والكُفريّات!
والكتاب مطبوعٌ من قديمٍ، فقد نُشر لأول مرة في أوروبا سنة (١٨٦٨م). كما صدر عن دار الكتب المصرية بتحقيق جماعة بإشراف الاستاذ إبراهيم الابياري. ثم نُشر بعد ذلك عدةَ مراتٍ.

للأصفهاني[(١)]، و«الكامل»[(٢)] ....

(١) هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، أبو الفرج الأصفهاني. من أئمة الأدب المشهورين، لكنه كان متهمًا بالكذب، رقيقَ الديانة.

وقد تقدّم معنا قولُ الحسن بن الحسين النوبختي: «كان أبو الفرج الأصفهاني أكذبَ الناس»، وكذا تضعيفُ ابن تيمية له.

وقال هلالُ بنُ المحسّن الصّابي: «كان أبو الفرج صاحبُ الأغاني من نُدماء الوزير المهلَّبي، وكان وسِخًا قذِرًا لم يُغْسَلْ له ثوبٌ أبدًا منذ فصّله إلىٰ أنْ يتقطّع! وشِعْره جيّد لكنّه في الهجاء أبلغ، وكانوا يتّقون لسانَه ويصبرون علىٰ مجالسته ومشاربته».

وقال الذهبيُّ: «شيعيٌّ، وهذا نادرٌ في أموي! كان إليه المنتهىٰ في معرفة الأخبار وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات، يأتي بأعاجيب بحدّثنا وأخبرنا!».

من كتبه: «**الأغاني**» و«**مقاتل الطالبيين**»، و«**نسب بني عبد شمس**»، و«**القِيان**»، و«**الإماء الشواعر**»، و«**أيام العرب**» ذكر فيه ١٧٠٠ يوم، و«**التعديل والإنصاف**» في مآثر العرب ومثالبها، و«**جمهرة النسب**»، و«**الديّارات**»، و«**الحانات**»! و«**الخمّارون والخمّارات**»! و«**آداب الغرباء**». وكان يبعث بتصانيفه سِرًّا إلىٰ صاحب الأندلس الأموي فيأتيه إنعامُه.

انظر: أخبار أصبهان (١/ ٤٤٧)، ومعجم الأدباء (٤/ ١٧٠٧)، ووفيات الأعيان (٣/ ٣٠٧)، وميزان الاعتدال (٥/ ١٥١)، وتاريخ الإسلام (٢٦/ ١٤٤)، والأعلام (٤/ ٢٧٨).

(٢) كتاب «الكامل» من أهم كتب اللغة والأدب، وقد تقدم معنا قولُ ابن خلدون أنه أحدُ أصول فنّ الأدب وأركانه.

وفي الكتاب الكثيرُ من المباحث اللغوية والنحوية والأخبار والأشعار، وفيه فوائدُ جمةٌ لطالب العلم يجدها مبسوطةً فيه، مع التمثيل شعرًا ونثرًا لكلّ ما عرضه المبردُ من معارف. وقد أنهاه بمختاراتٍ شعريةٍ قليلةٍ لكنها قويةٌ.

صدر الكتابُ قديمًا عن المكتبة التجارية بمصر جزءان في مجلدٍ واحدٍ. ثم طبعته مكتبة مصطفىٰ الحلبي في مصر بتحقيق الدكتور/ زكي مبارك، في ثلاثة مجلدات سنة (١٩٤٣م). ثم طبع عن دار نهضة مصر للطبع والنشر في أربعة أجزاء بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاتة. ثم طبع عن مؤسسة الرسالة بيروت عام (١٩٩٧م) بتحقيق =

.... لِلمُبَرِّد[١].

⇦ وحثّني علىٰ قراءة «مقدِّمة ابن خَلْدون»[٢]، ....

=

الدكتور/ محمد أحمد الدالي في أربعة أجزاء كبيرة، وهي أمثلُ وأفضلُ طبعاته.

وقد شرح الكتابَ العلامةُ سيّد بن علي المرصفي من كبار علماء الأزهر (ت ١٣٤٩ هـ) وشرْحُه يعرف بـ«**رغبة الآمِل من كتاب الكامل**» وهو في ثمانية أجزاء.

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزْديّ البصريّ، المعروف بالـمُبَرَّد (قال الزبيدي في شرح خطبة القاموس: المبرّد بفتح الراء المشدّدة عند الأكثر وبعضهم يكسر) إمامُ العربية ببغداد في زمنه، وأحدُ أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد سنة (٢٨٦ هـ).

كان فصيحًا، ثقةً، إخباريًا علّامةً، وله تصانيفُ مشهورةٌ، من أشهرها: «**المقتضَب**» في النحو، و«**الكامل**» في اللغة والأدب، و«**المذكَّر والمؤنَّث**»، و«**التعازي والمراثي**»، و«**شرح لامية العرب**»، و«**إعراب القرآن**»، و«**نسب عدنان وقحطان**».

انظر: أخبار النحويين البصريين: للسيرافي (ص/ ٧٣)، وتاريخ بغداد (٤/ ٦٠٣)، وتاريخ الإسلام (٦/ ٨٣١)، والأعلام (٧/ ١٤٤).

(٢) هذه المقدمة هي التي افتتح بها ابنُ خَلدون تاريخَه المسمّىٰ «**العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**»، فاشتهرتْ المقدّمةُ ونُسيَ التاريخُ!

وقد بنىٰ ابنُ خلدون مقدمتَه هذه علىٰ توطئةٍ عن علم التاريخ، ثم أعقبها بستة أبواب:

- جعل البابَ الأولَ في العمران البشري، وفيه ستُّ مقدمات.
- والثاني: في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل، ويضمّ (٢٩) فصلًا.
- والثالث: في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية، ويضمّ (٥٣) فصلًا.
- والرابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران، ويضمّ (٢٢) فصلًا.
- والخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ويضمّ (٣٣) فصلًا.
- والسادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، ويضمّ (٦٠) فصلًا.

وقد أرسىٰ ابنُ خلدون في مقدمته هذه قواعدَ فقه التاريخ وعلم العمران وعلم الاجتماع.

طُبعت المقدمةُ مع التاريخ، وأُفردت بالطباعة عدةَ مراتٍ. وقد حقّقها جماعةٌ من المحقّقين، =

.... و«العقد الفريد»[١]

=

لكنّ أشهرها تلك التي حقّقها الدكتور/ علي عبد الواحد وافي في ثلاثة مجلدات. وكذا التي نشرها إبراهيم شبُّوح وإحسان عباس في مجلدين.

قلتُ: ونِعِمَّا ما أوصىٰ به ابنَ أخيه؛ فإنّ هذه المقدّمةَ لا أعرفُ لها نظيرًا في بابِها، وإنه لحقٌّ علىٰ الجامعاتِ أنْ تُقرِّرَه - الأصلَ أو التهذيبَ - علىٰ طلّابِها، ولقد صدقَ المقريزي حين قال: «مُقدِّمتُهُ لم نَعْلمْ مِثَالَها، وإنه لعزيزٌ أن يَنَالَ مُجْتهِدٌ مَنَالَها»! وانظر مزيدًا من الكلام علىٰ مكانتها وأهميتها في كتابي «الإبداع العلمي».

(١) كتابُ «العِقْد الفريد» - ويُقال: (العِقْد) فحَسْب - من أعظم كتب الأدب علىٰ الإطلاق، قال عنه ابن خلكان: «صنف كتابه «العقد» وهو من الكتب الممتعة، حوىٰ من كلّ شيء». وفيات الأعيان (١/ ١١٠).

والكتابُ فريدٌ كاسْمه في اختياراته، وفي ترتيبه وعنواناته! فقد قال مؤلفُه في المقدمة: «وقد نظرتُ في بعض الكتب الموضوعة فوجدتُها غيرَ متصرِّفةٍ في فنون الأخبار، ولا جامعةٍ لجُمل الآثار؛ فجعلتُ هذا الكتابَ كافيًا شافيًا جامعًا لأكثر المعاني التي تجري علىٰ أفواه العامّة والخاصّة. وتدور علىٰ ألسنة الملوك والسُّوقَة. وحَلَّيتُ كلَّ كتابٍ منها بشواهدَ من الشِّعر، تُجانِسُ الأخبارَ في معانيها، وتوافقُها في مذاهبها؛ وقرنتُ بها غرائبَ من شِعري، ليعلمَ الناظرُ في كتابنا هذا أنَّ لمغربنا علىٰ قاصيته، وبلدنا علىٰ انقطاعه، حظًّا من المنظوم والمنثور».

وعن سبب تسميته قال: «سمّيتُه كتاب (العقد الفريد) لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة السَّلْك وحُسْن النظام».

وقد اعتمد في تأليفه واختياره لموضوعاته وأخباره علىٰ مصادر كثيرة، منها ما هو ديني: كالقرآن الكريم والسنة النبوية والتوراة والإنجيل، ومنها ما هو أدبيّ وتاريخيّ: كعيون الأخبار، والمعارف، لابن قتيبة. والحيوان، والبخلاء، والبيان والتبيين، للجاحظ. والكامل، للمبرَّد. وكليلة ودمنة، والأدب الكبير، والأدب الصغير، لابن المقفّع. والأمالي، لأبي عليّ القالي. ودواوينَ كثيرةٍ لشعراءَ جاهليّين وإسلاميّين، وغيرِ ذلك من الكتب التي طالتْها يداه.

وقد قسّم الرجلُ كتابَه إلىٰ فنون عديدة، وضمّنه خمسةً وعشرين كتابًا، انفرد كلُّ كتابٍ منها باسم جوهرةٍ من جواهر العِقْد.

=

.... لابنِ عبد ربِّه[١]، و«**بهجة المجالس**»[٢]

=

طُبع الكتابُ مراتٍ كثيرةً، كان أولها طبعة بولاق عام (١٢٩٢هـ = ١٨٧٥م). وصدر أيضًا عن دار الكتاب العربي، ببيروت، عام (١٩٨٣م) بتحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. وهي أشهرُ طبعاته. كما نشرتْه دارُ الكتب العلمية! بتحقيق: مفيد محمد قميحة في ثماني مجلدات مع مجلدٍ للفهارس. وغير ذلك.

(١) **هو** أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير المرواني مولىٰ أمير الأندلس هشام ابن الداخل الأندلسي القرطبي.

⬅ **قال ابنُ خلّكان**: «كان من العلماء المكثرين من المحفوظات، والاطلاع علىٰ أخبار الناس... وله ديوان شعر جيد».

⬅ **وقال عنه الحميدي**: «مِن أهل العلم والأدب والشعر، وله الكتاب الكبير المسمىٰ كتاب العقد في الأخبار، وهو مقسّمٌ علىٰ معاني، وقد سمّىٰ كلَّ قسمٍ منها باسمٍ من أسماء نظم العقد؛ كالواسطة ونحوها؛ وشعرُه كثيرٌ مجموعٌ، رأيتُ منه نيِّفًا وعشرين جزءًا.... وكان لأبي عمر بالعلم جلالةٌ، وبالأدب رياسةٌ، وشهرةٌ، مع ديانته، وصيانته؛ واتفقت له أيامٌ وولاياتٌ للعلم فيها نَفَاقٌ؛ فسادَ بعد خمول، وأثرىٰ بعد فقر، وأُشير بالتفضيل إليه، إلا أنه غلب الشعرُ عليه».

⬅ **ومِن ذائع شعره قوله** في المنذر بن محمد بن عبد الرحمن أحد ملوك الأندلس من بني أمية:

بالمنـــــــذرِ بــــــن محمــــــدٍ ... شَـــرُفتْ بـــــلادُ الأنـــــدلسْ

فـــــالطيرُ فيهـــــا ســــــاكنٌ ... والـــوحشُ فيهـــا قـــد أَنِـــسْ!

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (٣٢٨هـ).

انظر: جذوة المقتبس: للحميدي (ص/ ١٠١)، ووفيات الأعيان (١/ ١١٠)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٨٣)، والوافي بالوفيات (٨/ ٨).

(٢) **اسمُه كاملًا**: «**بهجةُ الـمَجَالِس، وأُنْسُ الـمُجَالِس، وشَحْذُ الذاهِنِ والهاجِس**».

وهو من أنفسِ كتب الأدب وأنظفِها وأنقاها. أفرغ فيه مؤلفُه خلاصةَ قراءاتِه وملاحظاتِه في ميدان الأدب، **كما قال في مقدمته** (١/ ٣٦): «جمعتُ في كتابي هذا من الأمثال السائرة،

=

لابن عبد البر[(١)]، فقرأتُ عليه بعضَها في حياته، وقرأت جميعَ ما أوصاني به

=

والأبيات النادرة، والحكم البالغة، والحكايات الممتعة في فنونٍ كثيرةٍ وأنواعٍ جمةٍ، من معاني الدين والدنيا، ما انتهىٰ إليه حفظي ورعايتي، وضمّنته روايتي وعنايتي، ليكون لمن حفظه ووعاه، وأتقنه وأحصاه، زَيْنًا في مَجالسه، وأُنسًا لـمُجالِسه، وشَحْذًا لذهنه وهاجِسه، فلا يمرُّ به معنىً في الأغلب مما يُذاكَرُ به، إلا أورد فيه بيتًا نادرًا، أو مثلًا سائرًا، أو حكايةً مُستطرَفةً، أو حكمةً مستحسَنةً، يَحسُنُ موقعُ ذلك في الأسماع، ويخِفُّ علىٰ النفس والطباع، ويكون لقارئه أُنسًا في الخَلاء، كما هو زينٌ له في الـمَلاء، وصاحبًا في الاغتراب، كما هو حَلْيٌ بين الأصحاب.

وجمعتُ في الباب به منه المعنىٰ وضِدَّه لمن أراد متابعةَ جليسه فيما يُورده في مجلسه، ولمن أراد معارضتَه بضِدِّه في ذلك المعنىٰ بعينه، ليكون أبلغَ وأشفىٰ وأمتعَ.

وقد قرّبتُه، وبوّبتُه ليَسهُلَ حِفظُه، وتَقرُبَ مطالعتُه، وافتتحتُ أكثرَ أبوابه بحديث الرسول ﷺ؛ تبركًا بتذكاره، وتيمّنًا بآثاره».

وقد حَفظَ لنا هذا الكتابُ بين دَفَّتيه - فوقَ ما ذُكرَ - تراثًا قيّمًا، ضاعت معظمُ مصادره الأصيلة وكاد يندثر، حيثُ تسابق الباحثون إليه فاستخرجوا منه دواوينَ شعريّة لشعراءَ مغمورين، كديوان (منصور الفقيه) وديوان (محمود الورّاق)، ورُوجع عليه ديوانُ (أبي العتاهية) الذي صنعه في الأصل ابن عبد البرّ وسماه: «الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية في الحكم والأمثال». كما كان المرجع الأساسي للدكتور إحسان عباس في كتابه «عصر سيادة قرطبة»، حيثُ جمع كلَّ ما فيه من شعر الأندلس.

وقد قام بنشر الكتاب محقّقًا د. محمد مرسي الخولي سنة ١٩٦٢م. ثم ١٩٨١م. كما اختصره ابن ليون وسمّاه «**بغية المؤانس من بهجة المجالس - خ**».

(١) **هو** الإمام العلامة حافظ المغرب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، القرطبي، المالكي، صاحب التصانيف الفائقة.

ولد بقرطبة. ورحل رحلاتٍ طويلةً في غربيّ الأندلس وشرقيّها. وولي قضاء لشبونة وشنترين. وتوفي بشاطبة.

◆ مِن كتبه: «**الدُّرر في اختصار المغازي والسِّيَر**»، و«**الاستيعاب**» في تراجم الصحابة، و«**جامع بيان العلم وفضله**» وهو نفيسٌ للغاية. و«**الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء**» ترجم

=

بعد وفاتِه!!

⇦ ازدادَ شَغَفِي بالقراءة من ذلك الحين، وقد أصبحتُ في درجةٍ من الفهم والإدراك أفرّق فيها بين الغَثّ من الكتب والسمين، وانصرفتُ إلىٰ شعراء الشرْق البارزين فقرأتُ المئاتِ من دواوينهم ودَرَسْتُها! وقرأتُ كثيرًا من الكتب المؤلَّفة في موضوع الأدب؛ كـ «العُمدة»(١) ....

=

به مالكًا وأبا حنيفة والشافعيَّ، و«التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، وهو أجلُّ كتبه، قال فيه أبو محمد بن حزم: «وهو كتابٌ لا أعلم في الكلام علىٰ فقه الحديث مثلَه، فكيف أحسنَ منه؟»، و«الاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار»، وغير ذلك من المصنفات الجليلة. وفضائله يطول سردُها.

ومِن عجائب الاتفاق أنّ وفاةَ حافظ المغرب وحافظ المشرق (الخطيب البغدادي) كانتا في سنةٍ واحدةٍ هي (٤٦٣ هـ)!

انظر: بغية الملتمس (ص/ ٤٩٠)، ووفيات الأعيان (٧/ ٦٦)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣)، والأعلام: للزركلي (٨/ ٢٤٠).

(١) اسم الكتاب: «العُمْدة في محاسن الشعر وآدابه» وهو أشهرُ تآليف ابن رشيق القيرواني التي تَنيفُ علىٰ ثلاثين كتابًا، والكتابُ الذي خَلَّد اسمَه وشَهَرَه من بين آثاره، حتىٰ قال ابنُ خلدون: «وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطىٰ حقَّها، ولم يَكتبْ فيها أحدٌ قبلَه ولا بعدَه مثلَه» المقدمة (ص/ ٦٥٢).

وقد أراد مؤلفُه أن يكون موسوعةً في الشعر ومحاسنه ولغته وعلومه ونقده وأغراضه، والبلاغة وفنونها، وما لابدّ للأديب من معرفته من أصول علم الأنساب، وأيام العرب، وملوكها وخيولها وبلدانها.

واشتمل الكتابُ علىٰ (١٠٧) بابًا، منها (٥٩) بابًا في فصول الشعر وقضاياه، و (٣٩) بابًا في البلاغة وعلومها، و (٩) أبواب في فنون شتّىٰ.

ومن أبوابه الماتعة: باب السرقات وما شاكلها: كالاصطراف، والإغارة، والغصب، والمرافدة، والاهتدام، والإلمام، والاختلاس، والمواردة، والالتقاط، والمجدود.

=

.... لابن رشيقٍ(١)، وكُتُب: العَسْكري(٢)،

=

طُبع الكتاب عدةَ مراتٍ، أشهرها الطبعة التي حقّقها الشيخُ محمد محي الدين عبد الحميد، ثم التي حقّقها الدكتور محمد حسن قرقزان في رسالة علمية عالية، وهي أفضل الطبعات. وقد تعرّض في تحقيقه لذكر أوهام ابن رشيق ولذكر أخطاء الطبعات السالفة.

(١) هو أبو علي حسن بن رشيق، الأزدي القيرواني. ولد في المسيلة (بالمغرب) وتعلّم الصياغة، ثم مال إلىٰ الأدب وقال الشعر، فرحل إلىٰ القيرواون سنة (٤٠٦) ومدح ملكها، واشتهر فيها. وحدثت فتنةٌ فانتقل إلىٰ جزيرة صقلّيّة، وأقام بمازَر إحدىٰ مدنها، إلىٰ أن توفي سنة (٤٦٣ هـ).

كان شاعرًا أديبًا نحويًا لغويًا حاذقًا عَروضيًا، كثيرَ التصنيف، حسنَ التأليف، له مصنفاتٌ كثيرةٌ حسنة الوضع. منها: «**العمدة**» وهو أشهرُها كما تقدّم، و«**قُراضة الذهب – ط**» في النقد، و«**الشذوذ في اللغة**»، و«**أنموذج الزمان في شعراء القيروان – ط**»، و«**ديوان شعره – ط**»، و«**ميزان العمل في تاريخ الدول**»، و«**شرح موطأ مالك**»، و«**الروضة الموشيّة في شعراء المهديّة**»، و«**تاريخ القيروان**»، و«**المساوي**» في السرقات الشعرية.

انظر: أنموذج الزمان في شعراء القيروان (ص/ ٣٥٠) فقد ترجم لنفسه في آخر ترجمة من الكتاب، ومعجم الأدباء (٢/ ٨٦١)، وإنباه الرواة (١/ ٣٣٣)، وتاريخ الإسلام (١٠/ ١٩٢)، والأعلام: للزركلي (٢/ ١٩١).

(٢) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيىٰ بن مهران، أبو هلال العَسْكَري. نسبته إلىٰ (عسكر مُكرَم) من كور الأهواز.

لُغَويٌّ، أديبٌ، مشهورٌ، كان ساخطًا علىٰ أهل عصره إذْ لم يُكرموه، وكتب في ذلك أشعارًا كثيرةً ذكرتُ طرفًا منها في كتابي «الإبداع العلمي».

وهو ابنُ أخت أبي أحمد العَسْكَري (الحسن بن عبد الله بن سعيد) صاحب «تصحيفات المحدّثين» وتلميذُه.

له مصنفاتٌ كثيرةٌ منها: كتاب «**الصناعيتن: النظم والنثر**»، و«**ديوان المعاني**»، و«**جمهرة الأمثال**»، و«**الأوائل**»، و«**الحث علىٰ طلب العلم**» رسالة، و«**أسماء بقايا الأشياء**»، وكلها مطبوعةٌ، وغيرها.

أما وفاتُه فقال ياقوت: «لم يبلغْني فيها شيءٌ، غير أني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من
=

والجُرْجاني(١)، ....

=

تصنيفه: «وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشرٍ خلتْ من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة» فتكون وفاتُه بعد سنة (٣٩٥ هـ).

ومِن الطريفِ ما كتبه عنه الباخَرْزيُّ في دُمية القصر (١/ ٥٠٩) يصفُ رِقّةَ حالـه، قال: «بلغني أنّ هذا الفاضلَ كان يحضُر السُّوق، ويحمل إليها الوُسُوق (جَمْعُ وَسْق)، ويَحلُب دَرَّ الرِّزْق ويَمْتري، بأنْ يبيع الأمتعةَ ويشتري. فانظر كيف يَحْدو الكلامَ ويَسُوق، وتأمّلْ هل غَضَّ من فضله السُّوق؟ وكان له في سُوقَةِ الفُضَلاء أُسوةْ، أو كأنه استعار منهم لأشعاره كُسوةْ، وهم نصرُ بن أحمد الخُبْزأرْزِي، وأبو الفرج الوأْواءُ الدمشقيُّ والفاميُّ، والسَّرِي الرفّاء المَوْصليُّ.

أما نصرٌ فكان يَدْحُو الرُّقاقةَ الأرْزِيّةْ، ويشكو في أشعاره تلك الرَّزِيّةْ.

وأما أبو الفرج فقد كان يسعىٰ بالفواكه رائحًا وغادِيا، ويتغنّىٰ عليها منادِيا.

وأما السَّرِيُّ فكان يُطرِّي الخَلَق ويَرْفو الخِرَق، ويصف تلك العِبرَةْ، ويزعم أنه يَسترزق الإبرَةْ!

وكيف ما كان فهذه حِرْفةٌ لا تَخلو من حُرْفةْ، وصَنْعَةٌ لا تنجو من ضَرْعَةْ، وبِضاعةٌ لا تسلم من إضاعةْ، ومتاعٌ ليس به لأهله استمتاعْ!».

انظر: معجم الأدباء (٢/ ٩١٨)، وتاريخ الإسلام (٩/ ٣٣٨)، والأعلام: للزركلي (٢/ ١٩٦).

(١) هو شيخُ العربية، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرجاني، أحدُ العلماء المبدعين الجهابذة الأفذاذ، وواضع أصول علم البلاغة في كتابيْه العظيميْن: «**دلائل الإعجاز**» و«**أسرار البلاغة**».

أخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن حسن ابن أخت الأستاذ أبي علي الفارسي.

وله أيضًا: «**العوامل المائة**»، و«**الجُمل**» في النحو، و«**التتمّة**» في النحو، و«**المغني**» في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءًا، اختصره في شرح آخر سماه «**المقتصد**»، و«**إعجاز القرآن**»، و«**العمدة في تصريف الأفعال**»، وغير ذلك.

قال السِّلَفي: «كان وَرِعًا قانعًا، دخل عليه لِصٌّ، فأخذ ما وجد، وهو ينظر، وهو في

=

.... والآمِدي[١]، وقُدامةَ بنِ جعفرَ[٢]!

=

الصلاة فما قطعها!!».

توفي سنة (٤٧١هـ).

انظر: إنباه الرواة (٢/ ١٨٨)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٣٢)، وطبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ١٤٩)، والنجوم الزاهرة (٥/ ١٠٨)، وبغية الوعاة (٢/ ١٠٦).

(١) هو الحسن بن بشر بن يحيىٰ، أبو القاسم الآمديّ الأصل، البصريّ المنشأ.

إمامٌ فىٰ الأدب، كان حسن الفهم، جيد الدراية والرواية، سريع الإدراك،وله شعرٌ حسنٌ، واتساعٌ تامٌّ فىٰ علم الشعر ومعانيه روايةً ودرايةً وحِفظًا، حتىٰ انتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره بالبصرة. وصنّف كتبًا في ذلك حِسانًا.

وكان في البصرة كاتبًا للقضاة من بني عبد الواحد، صحب المشايخ والجِلّة، مثل أبي إسحاق الزجّاج وطبقته.

⬅ له كتاب: «**المختلف والمؤتلف**» في أسماء الشعراء، و«**نثر المنظوم**»، و«**معاني شعر البحتري**»، و«**الخاصّ والمشترك**» في معاني الشعر، و«**تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر**»، و«**تفضيل شعر امرئ القيس علىٰ الجاهليين**»، و«**فعلت وأفعلت**»، و«**الموازنة بين البُحْتُرِي وأبي تمام**» قال فيه ياقوت: «وهو كتابٌ حسنٌ، وإن كان قد عِيب عليه في مواضع منه، ونُسب إلىٰ الميل مع البحتري فيما أورده، والتعصّب علىٰ أبي تمام فيما ذكره، والناس بعدُ فيه علىٰ فريقين: فرقة قالت برأيه حسب رأيهم في البحتري وغلبة حبّهم لشعره، وطائفة أسرفت في التقبيح لتعصّبه، فإنه جَدَّ واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري. ولعمري إن الأمر كذلك». توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (٣٧٠ هـ).

انظر: معجم الأدباء (٢/ ٨٤٧)، وإنباه الرواة (١/ ٣٢٠)، وتاريخ الإسلام (٨/ ٣٢٠).

(٢) هو أبو الفرج قُدامةُ بنُ جعفر بن قُدامة البغدادي، الكاتب الإخباري. أحدُ الفُصحاء البُلغاء، حتىٰ إنّ الإمامَ الحريريَّ ضرب به المثل في مقدِّمة مقاماته، وذلك في قوله: «هذا معَ اعْتِرافِيْ بأنّ البَديعَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَبّاقُ غاياتٍ. وصاحِبُ آياتٍ. وأنّ المتصَدِّيَ بعدَهُ لإنْشاء مَقامةٍ. ولَوْ أُوتيَ بَلاغَةَ قُدامَةَ. لا يغْترِفُ إلا من فُضالَتِه. ولا يسْري ذلِك المَسْرىٰ إلا بدَلالَتِهِ».

⬅ وكان قُدامةُ فيلسوفًا نصرانيًا، فأسلم علىٰ يد الخليفة المكتفي بالله. وكان موصوفًا
=

⇦ **كرَّرتُ قراءةَ بعض الكتب** التي قرأتُها مرَّاتٍ ودرستُها! فما أبقىٰ كتابٌ فيها في نفسي أثرًا يحملني علىٰ معاودة قراءته في كل سنةٍ أو في كل فسحةٍ تأتي من وقتي ولا وجدتُ في نفسي لقراءته ما يجده الجائعُ لالتهامِ الطعامِ إلّا بضعةً وعشرين من الكتب ودواوين الشعر فإنها استولتْ علىٰ شعوري، وأصبحتْ جُزءًا من إحساسي، وبلغ شَغَفِي بقراءتها مَبلغَ الافتتان!

⇦ **ولنقتصرْ هنا** علىٰ كتب الأدب من نظمٍ ونثرٍ؛ فإن السَّرْدَ لجميع الكتب ذاتِ التأثير في نفسي يطول.

مِن الشِّعرِ الذي كان له الأثرُ الذي لا يَنْصُلُ[(١)] صَبْغُهُ من نفسي: شِعرُ المتنبّي[(٢)]؛ لما فيه من فُحولةٍ، وقوةِ أَسْرٍ، وسدادِ حكمةٍ، وسَيْرورةِ أمثالٍ،

=

بمعرفة علم المنطق، وممّن حضر مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات وقتَ مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتّىٰ المنطقي في بطلان المنطق سنةَ عشرين وثلاثمائة.

له كتاب: «**الخراج**»، وكتاب «**نقْد الشِّعْر**»، وكتاب «**صابون الغمّ**»! وكتاب «**صرف الهمّ**»، وكتاب «**درياق الفكر**»، وكتاب «**الردّ علىٰ ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام**» وغير ذلك. توفي فيما يُظَنّ سنةَ (٣٣٧هـ).

انظر: المنتظم (٦/ ٣٦٣)، والنجوم الزاهرة (٣/ ٢٩٧)، ومعجم الأدباء (٥/ ٢٢٣٥)، وتاريخ الإسلام (٧/ ١٩٠).

(١) **النَّصْلُ**: النَّزْعُ والإخراجُ. أي: لا يخرج أثرُه من نفسي. **انظر**: مقاييس اللغة: لابن فارس (٥/ ٤٣٢)، وتاج العروس: للزبيدي (٣٠/ ٤٩٥).

(٢) **هو** شاعرُ الزمان، أبو الطيب أحمد بن حسين بن حسن الجُعفي الكوفي الأديب، الشهير بالمتنبِّي.

بلغ الذروةَ في النظم، وأربىٰ فيه علىٰ المتقدِّمين، وسار ديوانُه في الآفاق.

مدح سيفَ الدولة الحمداني صاحبَ حلب، واشتهرتْ مدائحُه فيه بالسيفيّات. ومدح الخادمَ كافورا صاحبَ مصر، وأخبارُه مشهورةٌ معلومةٌ فلا نُطيل. توفي مقتولًا سنة (٣٥٤ هـ).

=

وإصابةِ أهدافٍ، وتخطيطٍ لدساتيرِ البطولةِ، وتحديدٍ لمواقعِ الكرمِ، وتلقينٍ لمعاني الذِّيادِ والحِفاظِ، وتمثيلٍ لبُعْدِ الهِمَم، وإنّ المتنبّي في بعض ما يصفُ من الذين يقولون ما لا يفعلون!

⮌ وشعرُ أبي فراسٍ الحمْدانيِّ(١)؛ لما يَشِيعُ في جوانبه من الانتخاءِ(٢) بالعُروبةِ، والتنويهِ بشعائرِ العربِ وأخلاقِهم ومآثرِهم وأمجادِهم، ولأنه أصدقُ من المتنبِّي في كثيرٍ ممّا يدّعيه المتنبِّي!

= انظر: تاريخ بغداد (٥/ ١٦٤)، ووفيات الأعيان (١/ ١٢٠)، وسير أعلام النبلاء (١٦/ ١٩٩).

(١) هو الحارثُ بنُ سعيد بن حمدان أبو فراس بن أبي العلاء التغلبي الحمداني، الأميرُ الشاعرُ. وهو ابنُ عمّ سيف الدولة.

كان شجاعًا، كاملَ الأدب، بارعَ الشعر، حتىٰ كان الصاحبُ بنُ عبّاد يقول: «**بُدِئَ الشِعرُ بمَلِكٍ وخُتم بمَلِكٍ**» يعني بهما: أمرأَ القيس، وأبا فراس.

⮌ وله وقائعُ كثيرةٌ، قاتل بها بين يديْ سيف الدولة. وكان سيفُ الدولة يحبّه ويجلّه ويستصحبه في غزواته ويقدّمه علىٰ سائر قومه، وقلَّده منبجًا وحرانَ وأعمالَها، فكان يسكن بمنبج (بين حلب والفرات) ويتنقل في بلاد الشام.

جُرح في معركة مع الروم، فأسروه (سنة ٣٥١ هـ) فامتاز شعرُه في الأسر ولُقّب بـ (الرُّوميات). وبقي في القسطنطينية أعوامًا، ثم فداه سيفُ الدولة بأموالٍ عظيمة.

مات قتيلًا في صدد (علىٰ مقربة من حمص) سنة (٣٥٧ هـ).

انظر: تاريخ دمشق (١١/ ٤٢١)، وتاريخ الإسلام (٨/ ١١٣)، والأعلام: للزركلي (٢/ ١٥٥).

(٢) الانتخاءُ: الافتخارُ والتعظُّمُ. مأخوذٌ من النَّخْوَةُ: وهي العَظَمة. يقال: انْتَخىٰ فلانٌ علينا، أي افتخرَ وتعظَّمَ. انظر: تهذيب اللغة: للأزهري (٧/ ٢٣٩)، والصَّحاح: للجوهري (٦/ ٢٥٠٥)، ولسان العرب: لابن منظور (١٥/ ٣١٣).

وشعرُ البُحتريِّ[(١)]؛ لحلاوتِه وانسياغِه في اللَّهَوَاتِ، وسلامتِه من الـمُعاضَلَة والتعقيد وجميع العيوب التي وُصِمَ بها أستاذُه أبو تمّامٍ[(٢)].

---

(١) هو الوليد بن عُبَيْد بن يحيىٰ بن عبيد بن شملال، أبو عبادة الطائي البُحْتري، الشاعر المشهور، صاحب «الدّيوان» المعروف.

كان أحدَ شعراء زمانه، مدح الخلفاء والوزراء والأعيان. وكان بعضُ أهل عصره يقدِّمونه علىٰ أبي تمام باديْء الرأي ويختمون به الشعراء. ونظمُه في أعلىٰ الذّروة.

قال المبرّد: أنشدنا شاعرُ دهره، ونسيجُ وحده، أبو عبادةَ البُحتري.

وهو من أهل مَنْبج ونشأ فيها، ثم صار إلىٰ أبي تمام وهو بحِمص فعرض عليه شعرَه، وكان يجلس للشعراء فيعرضون عليه أشعارَهم، فلما سمع أبو تمام شعرَه أقبل عليه وقال له: أنت أشعرُ من أنشدني. وقال له أيضًا: أنت أميرُ الشعر بعدي. قال: فسُررتُ بقوله. وقيل: أنشد أبا تمام قصيدةً له، فقال: نَعيتَ إليَّ نفسي!

وللبحتريِّ تصرُّفٌ حسنٌ في ضروب الشعر سوىٰ الهجاء فإنه لم يُحسنْه، وأجودُ شعره ما كان في الأوصاف. وكان يتشبّه بأبي تمام في شعره ويحذو حذوَه وينحو نحوَه في البديع الذي كان أبو تمام يستعمله، ويراه إمامًا ويقدّمه علىٰ نفسه، ويقول في الفرق بينهما قولَ منصفٍ: إنّ جيّدَ أبي تمام خيرٌ من جيّدي ورديئي خيرٌ من رديئه!

وقال له الحسين بن إسحاق يومًا: إن الناس يزعمون أنك أشعرُ من أبي تمام، فقال: والله ما ينفعني هذا القول ولا يضرّ أبا تمام، والله ما أكلتُ الخبزَ إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوا، ولكنّي والله تابعٌ له لائذٌ به، نسيمي يَرْكُدُ عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه!

توفي سنة (٢٨٣ هـ).

انظر: تاريخ بغداد (١٥/ ٦٢٠)، ومعجم الأدباء (٦/ ٢٧٩٦)، وتاريخ الإسلام (٦/ ٨٤٤)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٨٦).

(٢) هو حبيب بن أوس بن الحارث، أبو تمّام الطائي، أحدُ شعراء الزمان. في شعره قوةٌ وجزالةٌ، حتىٰ اختُلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبُحتري.

وقيل: سئل أبو العلاء المعري: مَنْ أشعرُ الثلاثة: أبو تمام، والمتنبي، والبحتري؟ =

وشعرُ الشريف الرضِي[(١)]؛ لِرقّتِه وانطباعِه، وبراعتِه في الوصفِ،

=

فقال: أبو تمام والمتنبي حكيمان، والشاعرُ: البحتري!

وُلد في قرية جاسم (من قرىٰ حوران بسورية) ورحل إلىٰ مصر، وكان في حداثته يَسقي الماءَ في المسجد الجامع بها، ثمّ جالس الأدباء، فأخذ عنهم، وتعلّم منهم، حتىٰ حفظ أربعةَ عشرَ ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع! وكان فَطِنًا فَهِمًا يُحبّ الشعر، فلم يزلْ يُعانيه حتىٰ قال الشعرَ فأجاد.

كان أسمرَ طويلًا. فصيحًا، حلوَ الكلام، لكن كانت فيه تمتمةٌ، هجاه بها مخلدُ بنُ بكّار الموصليُّ - وقيل: ابنُ الرومي - فقال:

يـــــا نبـــــــيَّ اللهِ في الشعْـــــــــــرِ ويـــا عيســـىٰ بـــنَ مـــريمْ!

أنـــتَ مِـــن أشـــعرِ خلـــقِ اللـــــــــــهِ مـــا لـــمْ تـــتكلّمْ!

فلم يُجِبْهُ أبو تمام، بل رآه دون المهاجاة والجواب، ولو هجاه لشرُفتْ حالُه ونَبُه ذِكْرُه!

استقدمه المعتصمُ إلىٰ بغداد، فأجازه وقدّمه علىٰ شعراء وقته، فأقام في العراق. ثم ولي بريد الموصل، فلم يُتمّ سنتين حتىٰ توفي بها سنة (٢٣١هـ).

له تصانيفُ، منها: «**فحول الشعراء**»، و«**ديوان الحماسة**»، و«**مختار أشعار القبائل**» وهو أصغر من ديوان الحماسة، و«**الوحشيّات**» ويُعرف بالحماسة الصغرىٰ، و«**ديوان شعره**».

انظر: تاريخ بغداد (٩/ ١٥٧)، ووفيات الأعيان (٢/ ١١)، وتاريخ الإسلام (٥/ ٨٠٥)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٨٧)، والأعلام: للزركلي (٢/ ١٦٥).

(١) هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسىٰ بن محمد، العلوي الحسيني الموسَويّ، المعروف بالشريف الرّضِي، مِن ولد موسىٰ بن جعفر بن محمد. نقيبُ الطّالبيّين وأشعرُهم علىٰ كثرة المجيدين فيهم.

مولده ووفاته في بغداد. انتهت إليه نقابةُ الأشراف في حياة والده.

له ديوانُ شِعرٍ مشهور، وشعرُه من الطبقة الأولىٰ رَصْفًا وبيانًا وإبداعًا.

ومن مؤلفاته: «**الحَسَن من شِعر الحُسَين**» وهو مختاراتٌ من شعر ابن حجّاج البغدادي - الشاعر الذي قال فيه الذهبي: «شاعر العصر، وسَفيه الأدب، وأمير الفُحْش، كان أمةً وحده

=

وصِدْقِه في الفخرِ حينَ يَفخرُ بأصولِه الغُرِّ الميامينِ. والفخرُ بأولئك الأصول هو الينبوعُ الثَّرُّ من ينابيع شعره.

وشعرُ المعرِّي(١) ....

=

في نظم القبائح وخِفّة الروح!» - قال الخطيبُ البغدادي: «سرد أبو الحسن الموسوي، المعروف بالرضيّ، من شعره في المديح والغزل وغيرهما، ما جانب السُّخْفَ فكان شعرًا حسنًا متخيّرًا جيدًا». وقال ابنُ كثير: «جمع الشريفُ الرضي أشعارَه الجيدةَ علىٰ حِدةٍ في ديوانٍ مفرد، ورثاه حين توفي».

و«**المجازات النبويّة**»، و«مجاز القرآن» طبع باسم «**تلخيص البيان عن مجاز القرآن**»، و«**مختار شعر الصابئ**»، و(مجموعة ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابئ من الرسائل) طُبعت باسم «**رسائل الصابي والشريف الرضي**»، و«**حقائق التأويل في متشابه التنزيل**»، و«**خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**». وللدكتور زكي مبارك «عبقرية الشريف الرضي». توفي سنة (٤٠٦ هـ).

ومن بديع وغريب شعره قولُه يخاطب الخليفةَ الطائع:

مَهْلًا أميرَ المؤمنينَ فإننا ... في دَوحةِ العلياءِ لا نتفرّقُ
ما بيننا يومَ الفَخارِ تفاوتٌ ... أبدًا كِلانا في التفاخر مُعْرِقُ
إلّا الخلافةَ مَيَّزَتْكَ فإنني ... أنا عاطلٌ منها وأنتَ مُطَوّقُ!

قيل: إن الخليفة لما سمع ذلك قال: علىٰ رُغم أنف الرَّضي!

وقيل: إنه كان يومًا عنده وهو يعبث بلحيته ويرفعها إلىٰ أنفه، فقال له الطائع: أظنُّ أنك تشمُّ رائحةَ الخلافةِ فيَّ؟ فقال: بل رائحةَ النبوة. يقصدُ نفسَه لأنه من آل البيت!

انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٤١٤)، وتاريخ الإسلام (٩/ ١١١)، والكشكول: للعاملي (١/ ٢٦٦)، والأعلام للزركلي (٦/ ٩٩) و(٢/ ٢٣١).

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد، التَّنوخيّ المعرِّي، اللُّغويُّ الكبير، والشاعرُ الشهير.

ولد سنة (٣٦٣ هـ).

=

=

أضرَّ بالجُدري وله أربعُ سنين وشهر؛ سالت اليسرىٰ، وابيضّت اليمنىٰ، فكان لا يَذكر من الألوان إلا الأحمر، لثوب أحمر ألبسوه إياه.

قال الشعرَ وهو ابنُ إحدىٰ عشرة سنة! وله أشعارٌ كثيرةٌ، وسمع اللغة، وأملىٰ فيها كتبًا، وله بها معرفةٌ تامةٌ، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وأقام بها سنةً وسبعةَ أشهر، ثم عاد إلىٰ وطنه، فلزم منزله، وسمَّىٰ نفسَه: **رهين المحبسين** لذلك ولذهاب بصره!

بقي خمسًا وأربعين سنةً لا يأكل اللحمَ ولا البيضَ ولا اللبنَ! ويُحرِّم إيلامَ الحيوان! ويَقتصر علىٰ ما تنبت الأرض، ويلبس خشنَ الثياب، ويُظهر دوامَ الصوم!

له مصنفاتٌ مشهورةٌ، منها: «**رسالة الغفران**»، وديوان «**سقط الزند**»، و«**اللزوميات**» وغيرها.

وقد اختلفَ الناسُ في حاله:

- فمنهم مَن يتّهمُه بالزندقة والانحلال، كابن الجوزي الذي قال: «زنادقةُ الإسلام ثلاثةٌ: ابنُ الراوندي، وأبو حيان التوحيديّ، وأبو العلاء المعرّي. وأشدُّهم علىٰ الإسلام أبو حيّان؛ لأنّهما صرّحا وهو مَجْمَجَ ولم يُصرِّح».

وقال أيضًا: «كان ظاهرُ أمره يدلُّ أنه يميل إلىٰ مذهب البراهمة، فإنهم لا يرون ذبحَ الحيوان، ويجحدون الرسلَ، وقد رماه جماعةٌ من أهل العلم بالزندقة والإلحاد، وذلك أمرُه ظاهر في كلامه وأشعاره، وأنه يَردُّ علىٰ الرسل، ويَعيبُ الشرائع، ويَجحدُ البعث».

وقال ابنُ القيّم: «لما انتهىٰ أبو عيسىٰ الورّاق إلىٰ حيث انتهتْ إليه أَربابُ المقالات فطاش عقلُه، ولم يتسع لحكمة إيلام الحيوان وذبحه صنف كتابًا سماه «**النوح علىٰ البهائم**»! فأَقام عليها المآتم وناح، وباح بالزندقة الصُّراح. وممّن كان علىٰ هذا المذهب أَعمىٰ البصر والبصيرة كلبُ معرّة النعمان المكنّىٰ بأبي العلاءِ المعرّي، فإنه امتنع من أَكل الحيوان زعم لظُلمه بالإيلام والذبح!» طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص/ ١٥٧).

- ومنهم مَن يُصحِّحُ عَقْدَه.
- ومنهم مَن يرىٰ أنه كان في حَيْرةٍ، كابن دقيق العيد.

وللعلّامة أحمد تيمور باشا «**أبو العلاء المعرّي وعقيدتُه**».

توفي سنة (٤٤٩ هـ).

انظر: المنتظم (١٦/ ٢٢)، ومعجم الادباء (١/ ٢٩٥)، ووفيات الأعيان (١/ ١١٣)، وتاريخ الإسلام (٩/ ٧٢١)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٤)، وتعريف القدماء بأبي العلاء.

.... في «اللُّزومِيَّات»[١]؛ لدِقَّتِه في وصف الدخائل النفسية، وتَدَسُّسِه إلىٰ

(١) اللُّزومِيَّات، أو لُزوم ما لا يلزم: اسم ديوان شعر أبي العلاء المعرّي. رتّبه علىٰ الحروف الهجائية.

والّلُزومِيّات في الاصطلاح: أن يلتزم الناثرُ في نثره، أو الناظمُ في نظمه، بحرفٍ أو أكثرَ قبل حرف الرويّ، بشرط عدم التكلّف.

وقد جاء هذا في الكتاب العزيز في مواضعَ كثيرةٍ، مثلَ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾، وكقوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾.

وأما في الشعر فيُعَدُّ أبو العلاء أكثرَهم التزامًا لهذا النوع من الشعر. وقد جاء فيه بأشياءَ بديعةٍ. إلّا أنّ له فيه عثراتٍ كثيرةٍ من حيثُ المعنىٰ، كقوله مثلًا:

ضَحِكْنا وكان الضِّحْكُ مِنّا سَفَاهةً ... وحُقَّ لسُكّانِ البسيطةِ أنْ يَبكُوا
تُحطِّمُنا الأيّامُ حتّىٰ كأنّنا ... زُجَاجٌ، ولكنْ لا يُعَادُ لـه سَبْكُ!

فقال ابن أبي كُدَيّة يُجيبُه:

كذبتَ و(أيمُ) اللهِ حِلْفَةَ صادقٍ ... سَيَسبِكُها بعدَ النوىٰ مَنْ لَه المُلْكُ
وتَرجِعُ أجسامٌ صِحاحًا سليمةً ... تَعارَفُ في الفِرْدوسِ ما عِندنا شَكُّ

وفي وصف ديوان «اللزوميّات» يقول الدكتور شوقي ضيف: «وهي من طرازٍ جديدٍ، إذ نراها تتضمن نقدًا للحياة الاجتماعية مع دعوةٍ واسعةٍ إلىٰ الزهد والتقشّف ورفض الدنيا، يسوده في ذلك كلِّه تشاؤمٌ واسعٌ؛ فالحياة كلُّها آلامٌ ونَصَبٌ وعذابٌ، وكان الشعراء قبل أبي العلاء يُعْنَوْنَ بهذا الجانب وخاصةً أبا العتاهية والمتنبي......

وإذن فموضوع **اللزوميات** ليس جديدًا، وما نرىٰ فيها من تشاؤم ودعوة إلىٰ الزهد في الحياة وسرد للحِكَم والعظات، كل ذلك ليس جديدًا خالصًا؛ فقد وُجد قبل أبي العلاء؛ غيرَ أن من الحق أن نشهد بأنه كبَّره ووسَّعه واستطاع أن يُخرجه في ديوانٍ خاصٍّ به يؤلفه علىٰ الحروف الهجائية، ويملؤه بهذا التشاؤم الواسع وما ينطوي فيه من وصف للدنيا بأنها دار آلام وعذاب؛ وقد ذهب يستعرض الحياة فيها من جميع جوانبها وينقدها نقدًا ساخرًا =

المكامن الروحية، وتَغَلْغُلِه إلىٰ مَدَبِّ السرائر الخفيّة، وسَعَةِ رحمته بالحيوان! وتنويهِه بالفضائلِ والمكارمِ والكمالاتِ، وتمجيدِه للعقل الذي هو مِيزانٌ لا يَخِيسُ[١]، ومِعْيارٌ لا يَخِسُّ[٢]!

ↄ وشعرُ ابن خَميس التِّلِمْسَاني[٣]؛ لبراعتِه المدهشةِ في المزاوجةِ بين

=

في جرأة وصراحة صريحة». الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ص/ ٣٨١ - ٣٨٢).

(١) لا يَخِيس: أي لا يتغيّر. انظر: تهذيب اللغة (٧/ ٢٠٢)، والمعجم الوسيط (١/ ٢٦٤).

(٢) يَخِسّ: أي يَخفُّ وزنه. يقال: خَسَّ يَخِسُّ من باب ضَرَبَ إذا خَفَّ وَزْنُهُ فلمْ يُعَادِلْ مَا يُقَابِلُهُ. انظر: المصباح المنير: للفيُّومي (١/ ١٦٩).

(٣) هو أبو عبد الله، محمد عمر بن محمد بن عمر الحَجْري الرُّعيني، الشهير بابن خميس، التلمساني. شاعر فحل، عالم بالعربية، ولد بتلمسان، وبها نشأ وأخذ عن مشيختها.

كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيّان، ثم فرّ عنهم، وقد أوجس منهم خِيفةً، لبعض ما يجري بأبواب الملوك. ورحل إلىٰ سبتة فأقام بها مدة، ومدح رؤساءها.

وفي أواخر سنة (٧٠٣ هـ) دخل الأندلس وسكن غرناطة وتصدّر للإقراء، فذاع صيتُه، فضمّه الوزير أبو عبد الله بن الحكيم إلىٰ مجلسه، وله فيه مدائح كثيرة.

وكانت وفاته في حادثة نكبة الوزير ابن الحكيم، قتله بعضُ مهاجمي قصر الوزير دون جَريرةٍ، ضحوةَ يوم الفطر، مستهلَّ شوال، سنة (٧٠٨هـ) وله نيّف وستون سنة.

⬅ قال ابن خلدون: «كان لا يُجارىٰ في البلاغة والشعر».

⬅ وقال ابن خاتمة: «كان من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، حافظًا لأشعار العرب وأخبارها، له مشاركةٌ في العقليات، واستشرافٌ علىٰ الطلب».

⬅ وقال لسان الدين ابن الخطيب: «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، نسيجَ وحده زهدًا وانقباضًا، وأدبًا وهمّةً، حسنَ الشّيبة، جميلَ الهيئة، سليمَ الصّدر، قليلَ التّصنّع، بعيدًا عن الرّياء والهوادة، عاملًا علىٰ السياحة والعزلة، عالمًا بالمعارف القديمة، مضطلعًا بتفاريق النِّحَل، قائمًا علىٰ صناعة العربية والأصليْن. طبقةَ الوقت في الشعر، وفحلَ الأوان في النظم المطوّل، أقدرَ الناس علىٰ اجتلاب الغريب، ومزْج الجزالة بالسّلاسة، ووضع الألفاظ البيانيّة مواضعَها، شديدَ الانتقاء والإرجاء، خامد نار الرّوية».

=

المعاني الحَضَريّة الرقيقة، وبين التراكيب البدَوية الجَزْلة، حتىٰ كأنه بقيةٌ من طبقة **عديٍّ بنِ زيدٍ العِبَادِي**(١).

وشعرُ أبي إسحاق بن خفاجة، الذي لو كُتب عنوانُه «**رَوْضةٌ وغَدِيرٌ**» لكان أصدقَ عنوانٍ.

=

له ديوان شعر جمعه بعد موته أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي وسماه «**الدرّ النفيس من شعر ابن خميس**».

انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة (٢/ ٣٧٦)، وأزهار الرياض (٢/ ٣٠١)، ونفح الطيب (٥/ ٣٥٩)، ونثير الجمان (ص/ ٣١٦)، ودرّة الحجال (٢/ ١٢٨)، وبغية الوعاة (١/ ٢٠٢).

(١) **هو** عدي بن زيد بن حمّاد (وقيل: حمّار) العبادي التميمي، شاعرٌ جاهليٌّ فحلٌ.

وهو أحدُ الشعراء الفحول الأربعة: طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة.

كان قرويًّا، من أهل الحيرة، فصيحًا، يُحسن العربيةَ والفارسيةَ ورمي النُّشّاب، ويلعب لعبَ العجم بالصوالجة علىٰ الخيل.

وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرىٰ، فقد اتّخذه في خاصّته وجعله ترجمانًا بينه وبين العرب، فسكن المدائن.

ولمّا مات كسرىٰ أنو شروان وولي ابنُه «هرمز» أقرّ عديًّا ورفع منزلته ووجّهه رسولًا إلىٰ ملك الروم في القسطنطينية بهدية، فزار بلاد الشام، وعاد إلىٰ المدائن بهدية قيصر.

ثم تزوج هندًا بنت النعمان بن المنذر ووشَىٰ به أعداءٌ له إلىٰ النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحِيرة.

قال ابنُ قتيبة: كان يسكن الحِيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانُه، وعلماء العربية لا يرون شعرَه حُجّةً.

وقد جُمع ما بقي من شعره في ديوانٍ وطُبع ببغداد.

مات تقريبًا سنة (٣٥) قبل الهجرة.

انظر: الشعر والشعراء: لابن قتيبة (١/ ٢١٩)، وخزانة الأدب: للبغدادي (١/ ١٨٤)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١١٠)، والأعلام (٤/ ٢٢٠).

وشعرُ شوقي[(١)] في الآخِرِينَ؛ لما فيه من سماتِ التجديد، ومنازِعِ

(١) هو أحمد بن علي بن أحمد شوقي. المعروفُ اختصارًا بأحمد شوقي. أشهر شعراء العصر الأخير، بُويع بأمارة الشعر ولقّبوه بأمير الشعراء.

ولد بالقاهرة عام ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٨ م من أبٍ كُرديٍّ وأمٍّ تركيةٍ. ونشأ في ظلّ البيت المالك بمصر، وتعلم في بعض المدارس الحكومية، وقضىٰ سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، ثم أرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧ م إلىٰ فرنسا، فتابع دراسة الحقوق في مونبليه، واطّلع علىٰ الأدب الفرنسي، وعاد سنة ١٨٩١م فعُيّن رئيسًا للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي. ونُدب سنة ١٨٩٦م لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجنيف.

ولما نَشَبَتْ الحربُ العالميةُ الأولىٰ، ونُحِّيَ عباس حلمي عن (خديوية) مصر، أوعز إلىٰ صاحب الترجمة باختيار مقامٍ غيرِ مصر، فسافر إلىٰ إسبانيا سنة ١٩١٥م وعاد بعد الحرب في أواخر سنة ١٩١٩م فجُعل من أعضاء مجلس الشيوخ إلىٰ أن توفّي.

عالج أكثرَ فنون الشعر: مديحًا، وغزلًا، ورثاءً، ووصفًا، ثم ارتفع محلِّقًا فتناول الأحداث السياسية والاجتماعية، في مصر والشرق والعالم الإسلامي، فجرىٰ شعرُه علىٰ كل لسان. وكانت حياتُه كلُّها (للشعر) يستوحيه من المشاهدات ومن الحوادث.

وهو أولُ من جَوّد القصصَ الشعريَّ التمثيليَّ بالعربية، وقد حاول قبله أفرادٌ، فبذَّهم وتفرّد.

وأراد أن يجمع بين عُنصريْ البيان: الشعر والنثر، فكتب نثرًا مسجوعًا علىٰ نمط المقامات، فلم يلق نجاحًا، فعاد منصرِفًا إلىٰ الشعر.

من آثاره: «**الشوقيات**» وهو مجموع شعره، و«**دول العرب وعظماء الاسلام**» نظمٌ، و«**أسواق الذهب**» نثرٌ أدبيٌّ راقٍ، و«**مَصْرع كِلْيوباطَرة**» قصةٌ شعريةٌ، و«**مجنون ليلىٰ**»، و«**قمبيز**»، و«**علي بك**»، وقَصَصٌ أخرىٰ.

توفّي سنة (١٩٣٢م).

انظر: الأعلام للزركلي (١/ ١٣٦)، ومعجم المؤلفين: لكحّالة (١/ ٢٤٦)، ومعجم أعلام شعراء المدح النبوي: لمحمد درنيقة (ص/ ٦٢).

ومن عجيب الاتفاق: أنني وافقتُه في اسمِه واسمِ أبيه واسمِ جدِّه!! فليتني أصلُ لمرتبته =

التوليد، وصِدْقِ التمثيلِ لعصرِنا هذا بما فيه من عظمةِ المادةِ، وسموِّ الإدراكِ، وتقدّمِ العلمِ والمعرفةِ، والوفاءِ للأسلافِ الذين أصَّلُوا الحضارةَ، وخَلَّدوا المؤْثَراتِ التي طاولتْ الدهرَ؛ ولاتِّساع جوانبه للإنسانيةِ كلِّها.

هذا كلُّه في أحدِ رُكْنيْ الأدب وهو الشعرُ.

⇦ **وأمّا النثرُ** فأهمُّ الكتبِ التي تركتْ في نفسي وفي مَلَكَتي آثارًا لا تُمْحَىٰ:

كتابُ «**البُخلاء**»(١) للجاحظ؛ لِإبداعِه في تصوير نَقِيصَةِ البُخْل ولِنفسيّة البخلاء، وجَمْعِه لنوادرهم في البُخْل، وانقيادِ اللغة له في الحديث عن الغرائز والأخلاق، وتَعمُّقِه في فهمِ طبقاتِ الناس.

ثمَّ كتابُ «**الحيوان**»(٢) له؛ لِجَمْعِه بين العلم والأدب، وإحاطتِه بكلِّ ما يتعلقُ بالحيوان من طباعٍ وغرائزَ مختلفةٍ وأقوالِ الحكماء والشعراء فيه.

ثمَّ كتابُ «**الأغاني**»(٣) لأبي الفرج الأصفهاني، ولا تَسْألْني عن خصائصِه التي أثَّرتْ في نفسي وجَلَبَتْ قِيادي إليه، حتىٰ تركتْني أُجدِّدُ قراءتَه من أوَّله إلىٰ آخره في كلِّ عَقْدٍ من سِنِيِّ عُمْري، وكلَّما قرأتُه تجدَّدتْ آثارُه في نفسي، وتجاوبتْ أصداؤُه بين جوانبي، فبعث فيّ رُوحًا جديدةً! لا تَسْألْني عن ذلك؛ فكلُّ أديبٍ قرأه وكرّر قراءتَه وجد في نفسه من التأثُّر مثلَ ما أَجِدُ، أو فوقَ

=

في الشعر!

(١) تقدّم التعريف به.

(٢) تقدّم التعريف به.

(٣) تقدّم التعريف به.

ما أَجِدُ، وتَجدَّدتْ عندَه صُورةٌ من روعةِ الأدب العربي وجلالِه[١].

⇦ هـذه هـي أمَّهـاتُ الكتـب الأدبيّـة التـي أثّـرت في نفسـي، بعـد تـأثُّري بأُمَّهاتِ الكتب الدينية الصحيحة، وأصلُها كلُّها كتابُ الله.

⇦ إنَّ الكتابَ الذي يُقرَأُ كالطعام الذي يُؤكَلُ، فطعامٌ يُعطِي آكلَه القوةَ والفَرَاهَةَ، وطعامٌ يُعطِي آكلَه الضعفَ والهُزالَ!

وإنّ المتبحِّرَ في قراءة الأصول الأدبية في أدبنا العربي بمعناه الواسع العام لا يَعرفُ في أدبائنا الناشئينَ أثرَ الكتب التي قرأوا، وما قرأوا إلّا النَّزْرَ اليسيرَ!!

⇦ نصيحتي الخالصةُ للأدباء الناشئين أنْ يُوفُوا حَظَّهم من قراءة الكتب العامرة التي تَقوَىٰ بها الـمَلَكَةُ، ويَفْحُلُ الطبْعُ، وتزكو الثمرةُ؛ فإنّي أرىٰ في كثيرٍ مما أقرأُ هذه الأيامَ من الآثار الأدبية لناشئتِنا أعْراضًا تُشبِهُ أعراضَ فَقْر الدَّم في الأجسام: نُحُولٌ واصْفِرارٌ!!».

وبهذه المقالةِ الفائقةِ نختتمُ الكتاب.

ونصلِّي ونسلِّمُ علىٰ نبيّنا محمدٍ، وعلىٰ آله والأصحاب.



---

(١) انظر تعليقنا عن حال كتاب «**الأغاني**» فيما مضىٰ.

فهرس المواضيع والفوائد

